الفصل السابع

يوم القيامة

(خنجر برايا. توفنگ بس مام)
الخنجر اخي والبندقية ابن عمّ
(مثل كردي)

أعرب (ملا مصطفى البارزاني) عن أسفه الشديد لان الجنرال (العقيلي) لم يتسنّ له الاشراف شخصيا على تطبيق خطته الشهيرة للمعركة التي كان يتوخى لها تحقيق النصر الحاسم، ثم انه استدرك قائلا:

ـ ومع هذا فبوسعه أن يزهو ويتنصل من المسؤولية بادعائه ان الهزيمة لم تحل به ولاتقع على عاتقه لانه لم يكن وزيرا او قائدا عند وضعها موضع التطبيق.

على ان الجنرال (شاكر محمود شكري) وزير الدفاع الجديد طبق تلك الخطة بالحرف الواحد. الخطة التي قام سلفه بوضعها وضبطها بادق مايمكن والى اصغر التفاصيل. فشن ماعُد في الواقع أوسع هجوم شنته الحكومة على الاطلاق. وقد بقي امره سرا ولم يكن يساور بغداد اي شك في نتيجته حتى ان السفير العراقي في طهران تقدم بمذكرة الى الحكومة الايرانية في يوم (ج) وهو يوم الهجوم يطلب فيها ان تحول دون دخول فلول المتمردين اراضيها بعد هزيمتها. وطلب بصورة خاصة ان ترفض منح حق اللجوء (لملا مصطفى البارزاني).

بدت خطة (العقيلي)لأول وهلة في غاية البساطة. ولايعسر فهمها على تلميذ نائب عريف يلم باقل المعلومات في الاستراتيجية الحربية: (ان العدو يسيطر على طريق مواصلات وحيد يؤمن له الحماية والتموين في الوقت نفسه. فكيف يمكن أن يصير هذا الطريق تحت رحمة المهاجم؟ من الضروري اذن للوصول الى هذا الغرض اختراق عقبة (رواندوز) المتمثلة في كل من جبلي (زوزك وهندرين) اللذين يسيطران على الطريق الشهير. وهذا الطريق يبدأ من (أربيل) وينفذ في اعماق كردستان ليقسمها الى نصفين حتى يبلغ الحدود العراقية ـ الايرانية في ممر (شينوك) ومن هنا يرتقي هضبة ويندمج في طريق (حيدر آباد) على محور رضائيه (اورميه) ـ مهاباد ولذلك كان المخطط العراقي يرمي الى تحقيق هدف مزدوج. فهو من جهة يرمي الى قطع الحبل السري الذي يربط الكرد بالبلاد الصديقة الوحيدة، وبعزلهم على هذا النحو، تتجزأ كردستان العراق مع قوات (ملا مصطفى البارزاني) الى نصفين وتؤدي العمليات الحربية الى فصل الجانبين، وفي الوقت نفسه ستحدث انشطارا في اقليم (سوران) الكردي ايضاً.

وأقر (الاب بيدار)بان نجاح هذه الخطة في ميدان القتال قد تذهب بريحهم فكل شيء نأتي به من هناك زادا وقوتا وأدوية وكثيرا من الاشياء الاخرى ولاسيما الأمل..

هذا الطريق التاريخي يعرف بـ (طريق هاملتون) نسبة الى اسم المهندس الانكليزي الذي بدأ بشقه في العام ١٩٢٦ ومضى به قدما يخرق مضايق (رواندوز) العجيبة التي يقف أمامها العقل ذاهلا مشدوها، والاستمرار به حتى الحدود الايرانية. فبنى الجسور الخمسة التي تعلو نهر رواندوز وظل الاسم يلازم الطريق حتى نهايته وبعدها يندمج عند دخوله قلب جبال (زاگروس) بالطريق السلطانية التي امتدت على خط مسيرة جيوش داريوس والاسكندر الكبير. ان (ارشيبالد ماين هاملتون) كون في اثناء قيامه بهذا العمل الجبار فكرة جد عالية عن الكرد وحفظ لهم في قلبه احتراما عميقا فكتب قبل مدة غير طويلة يقول في وصفهم «شعب صنديد لايهاب» مخلص واهل للثقة، يملك بشخص ملا مصطفى أعظم عسكريي عصرنا وانبغهم. وفي رسالة مفتوحة لجريدة «ايفننك ستاندرد» شجب الحرب العنيفة الظالمة التي تشنها (حسب تعبيره) قومية العرب الاعتدائية. هذا الطريق الفريد في بابه الذي يتلوى كالافعى في واد رهيب موحش شقته الطبيعة لتدفن فيه كنوزا من الفتنة والجمال يمتد مغنيا، متغزلاً، حاميا، مباركا فيعلو مرة طُنفُاً شاهقاً ومرة ينحدر متطامناً حتى يبلغ مستوى ماء النهر أو (روبار) راوندوز المحاذي له. وهذا مجرى ماء واسع سريع دفاق يعيد الى الذهن منظر (نهر دورانس) في بلادنا. ثم انه ينشر منعطفاته الافعوانية فوق عشرين صقعا ابتداء من جبهة القتال حتى الحدود الايرانية، ولقد احدث فيه القصف بعض تخريب على ان الطيارين العراقيين الذين كانوا واثقين بالنصر، والحق يقال لم يحدثوا فيه من التخريب بالقدر الذي احدثوه بعد الهزيمة. الا ان قسوة الشتاء وعادياته بسيول الماء المتكونة من ذوبان الثلج كانت السبب في احداث أعظم التلف به. على انه بمجموعه صالح جدا لوسائط النقل الالية وممتاز لتلك الانحاء بشبكة طرقها المرتبكة. انه ليشرف بطوله على القمم وعلى السفوح التي تغطيها اشجار البلوط والمروج فينسل شاقا سبيله او مخترقا او دائرا حول متاهات مثيرة للدهشة من الكتل الصخرية الصماء التي تقوم خير نموذج للموانع الطبيعية. واليه تنتهي الجداول والسيول المنحدرة من الجبال لتصب في النهر فتنظم له توزيعا اوركستريا زخرفيا مفعماً بالخيال، والرومانسية على ايقاع (ڤاگنيري) أصيل (١) ، إنه ليمر عبر بقاع ذات مناظر خلابة فتراه متعلقاً باهداب ذرى الجبال او مختفيا بين اشجار الحور او سابحا في حقول الارز المحددة كأنها قطع من القاشاني (حاج عمران ـ رايات ـ چومان ـ ناوپردان ـ ره شدور ـ خه لكان ـ ريزان ـ ناوكيله كان ـ پاش كوز ـ ريزانوك ـ به رسه رين ـ واره كون...) كل هذه الكتل الصخرية التي تشبه بعضها بعضا. تبدو بين المروج الخضر وبين الصخور الربداء، والحواف المدرجة اشبه بركام من التراب الحمراوي وتخرج منه مسالك تزحف متسللة في

١ـ تجد هذا الوصف نفسه في صحائف سبقت وهو نوع من الاستعارة مستمد من طبيعة الحان الموسيقي الالماني (ڤاگنر) الذي عرف بالحانه القوية وانتقالاته الفجائية من اليسر الى الشدة ومن الخشونة الى الرقة. (المترجم)

اديم الجبال لتنتهي بقرى كبيرة دخلت هي ايضا تاريخ كردستان مثل (گلاله وقصري، وجومساركه، وقصر السلام، وده ركله، وبرزيوه، وسالان، وزيوه) في الواقع ان اصغر قرية في كردستان هي ذات صلة بالحرب. انه والحالة هذه طريق من طرق جبال الالب العليا بكل الحلاوة التي يشيعها في النفس غناء المياه ووسوستها وهمساتها. مع الاهداب الزخرفية التي تنسدل من القمم المكسوة بالجمد او التيجان الثلجية بعد ثمانين كيلومترا من هذه المنعطفات يدلف الطريق فجأة منحدرا الى غور (رواندوز). ان معظم مدن كردستان وقصباتها شيدت على رقع من الارض في غاية الجمال والروعة. ولم تشذ (رواندوز) بمضايقها الفخمة المهيبة عن هذه القاعدة الجمالية في بلاد مازالت الطبيعة محافظة على عذريتها. والمدينة نفسها تحتل قعر منخفض واسع الارجاء اذا نظر المرء اليه من علٍ تذكر به منخفض (ديان بيان فو) زائدا حزاما جبلياً شاهق الارتفاع ترتفع معظم قممه القريبة لتتجاوز الالفي متراً.

والثوار الكرد يحتلون كلّ هذه الجبال تاركين (كاروخ) في الخلفية وهو جبل أجرد يصعب الدفاع فيه ولافائدة عسكرية منه. ويقوم كل من جبل (زوزك ـ ٢٢٢٠ مترا) وجبل (هندرين ـ ٢٨٧٥ مترا) بمثابة حارسين على جانبي الطريق. وهناك عدد من المواقع متفاوتة في اهيمتها تنتشر على طول الوادي حوّلها الجيش العراقي كلا او بعضا الى معسكرات مثل (بافستيان وبالكيان وهاوديان وبادليان ودلزان وديانا) القصبة المسيحية الهامة. والى الجنوب الشرقي من المدينة يمتد شق عميق هو وادي (اكويان) ذو الاهمية الستراتيجية الكبرى لانه يدور حول جبل (هندرين).

ذلكم هو اطار ساحة معركة (قردون) الكردية. حيث كان طريق (هاملتون) هذا بمثابة جائزة رهان، فهؤلاء يتحرقون شوقا للاستيلاء عليه كما يحرصون على سلامته في نفس الوقت. وهو لاولئك الاخرين قضية حياة او موت. مقفر في النهار يعج بالحركة عند حلول الظلام. انه طريق كردستان المقدس ولم تكن هذه الحركة الدائبة تحت جنح الظلام لتخفى على رئاسة اركان الجيش العراقي، الا انها لم تجسر على اطلاق طائرات الميگ والهاوكرهنتر من عقالها لتقع فريسة فخاخ الجبال الشاهقة. مرة واحدة اثناء وجودي قامت طائرة (اليوشن) منفردة بقصف الطريق على ارتفاع كبير في الساعة الحادية عشرة ليلا. وكنت ادور في سيارة جيب فوق الطريق الذي تقطعه الموانع والعقبات، فانفجرت صواريخ التنوير عن نجوم عديدة فأطفئت كل انوار السيارات واقتيدت لصق الصخور أو أخفيت في منعطفات الطريق. اما المقاتلون فشقوا لهم سبيلا بين الرعاة وكلابهم ليقذفوا بانفسهم الى ضفة النهر، وتفرق الرجال ايضا بين الحيوانات فاخذت تتحرك مجفلة كأن يدا سحرية مرت بينهم. وتواروا تحت ستر الظلام. وتخلل هدأة الليل صوت صاروا يتتبعونه ويتسمعون ويوجهون اليه انواع السباب او يسخرون منه احيانا. واخذت الصواريخ تزداد نورا اكثر فاكثر وتهبط بيسر ونعومة وتصبغ الطريق المقفر بنور حمراوي. ثم انحرفت الصواريخ يدفعها الهواء لتصبح فوق سفح الجبل. ان الاليوشن

التي كانت تحوم فوق رؤوسنا ابتعدت وعادت عيون انوار السيارة الامامية تُلقي بضيائها هنا وهناك.

حشدت رئاسة اركان الجيش العراقي في منخفض (رواندوز) أحسن فرقتين من فرقها الخمس وهما الفرقة الاولى والفرقة الثانية والاخيرة ومقرها كركوك تعتبر وحدةً مختارةً. وكان قائدها الجنرال (الانصاري)[٢] وتتألف من اللواء الثالث والرابع والخامس. وقد تخصصت بالحروب الجبلية. وانيطت ادارة العمليات بالجنرال (زكي حسين حلمي) قائد الفرقة الاولى وهذه الفرقة تتألف من اللواء الاول والرابع عشر والخامس عشر فضلا عن وحدات من المرتزقة (الجاش) مما يبلغ مجموعه خمس وثلاثين الف مقاتل مزود باحدث الاسلحة الهجومية تساندها مدفعية ثقيلة وطيران نشط. ومن الجهة الاخرى كان الثوار الكرد المضطرون على كل حال ـ الى الدفاع بطول الجبهة الممتدة من (زاخو) الى (خانقين) قد حشدوا في سبيل الدفاع عن القمم المشرفة على (رواندوز) ربع جيشهم العامل اي مايقارب ثلاثة الاف وخمسمائة مقاتل وانيطت القيادة (بأدريس البارزاني) تحت امرة ابيه وسلطته العليا يساعده رئيس الاركان (القاضي) وكانت مسؤولية الدفاع عن جبلي (زوزك) و (هندرين) منوطين بشابين من افضل القادة (فاخر محمد) من قرية (ميرگه سور) القريبة من بارزان و (فارس كوره ماركي) وهو منطقة زاخو. وكان البيشمرگه على العموم مزودين باسحلة خفيفة ورمانات معظمها من صنع محلي وقليل من مدافع الهاون وحوالي عشر مدافع ميدان يدخل فيها خمسة مدافع ثقيلة غنمت من العدو اثناء عمليات هجومية فاشلة. وكانوا يؤمنون السيطرة على الجبل بدورياتهم مستفيدين من الستر الطبيعي خير استفادة. وقد حفروا في جبل (زوزك) الاجرد تماما شبكة الخنادق والاستحكامات. كما كانوا على علم تام بكل الخطوات التي يتخذها الجيش استعدادا لهجومه المقرر في منخفض (رواندوز)، فلم يباغتوا بالهجوم الكبير وان كانوا يجهلون يومه وساعته.

بدأ الهجوم في منتصف ليلة ٢/٣ من أيار بعد قصف تمهيدي شديد بالمدفعية استمر حتى الفجر حيث اصبح الجبل كتلة من نار. وبطلوع النهار اخذت تشكيلات متعاقبة من الطائرات تتناوب الدق المتواصل بقنابل الناپالم وبعدها تنقض انقضاضا كاسحا بنيران رشاشاتها وصواريخها، وبعد هذا تقدمت المشاة بمساندة الاليات. كان الهدف الذي خُصص للوائين الثالث والرابع في القلب، جبلا (زوزك وهندرين). اما اللواء الرابع عشر والخامس عشر فوضعا على التوالي في الميمنة والميسرة وهدفها المخصص مواقع (واره كون) الحصينة ووادي (اكويان) المتفرع. اما اللواءان الاول والخامس فقد بقيا بمثابة احتياطي وظهير، ولتأمين الخدمات في معسكرات القاعدة. تخلى البيشمرگه عن مواقعهم

٢ـ اللواء الركن ابراهيم فيصل الانصاري فيما بعد رئيس اركان الجيش، الى مابعد السابع عشر من تموز ١٩٦٨. اتهم من قبل الحكم الحالي بالتآمر والعمالة والتجسس وسجن وعذب ويغلب على ظني انه مطلق السراح في الوقت الحاضر واشيع انه يشكو عاهة بسبب مالقي من تعذيب. (المترجم)

الأمامية في السهل تحت وابل منصب من قذائف مدفعية الميدان ومن قنابل الطائرات وامام زخم الهجوم الكاسح الذي شرعت به المشاة انكشفت مواقعهم التي كانت على قدمات الجبال وانسحبوا وهم يقاتلون الى القمم. لكن في الوقت الذي اوقفوا زحف العدو في كل من (واره كون ووادي اكويان) وجدوا انفسهم مرغمين على اعادة تنظيم خطوطهم فوق قمم (هندرين وزوزك).

وكان الوضع العصيب الذي وجد المدافعون عن (زوزك) فيه انفسهم قد سبب لديهم بعض الإحجام. وكان من بين عدد الجرحى الاوائل واحد من القادة الكبار واسمه (عبد الله احمد البشدري) التقيت به بعد فترة في مستشفى (ناوپردان) حيث كان يتلقى العلاج من (الدكتور حسن) ويستغل دور النقاهة في صقل لغته الانكليزية اذ وجدته يقرأ في طبعة مبسطة لكتاب «الملك آرثر او فرسان المائدة المستديرة». ومالبث محاربو (زوزك) ان تبنوا تاكتيكياً مرناً فكانوا تثبيتا لمراكزهم ـ يهاجمون ليلا الربايا الصغيرة التي اقامها العدو باستعجال، فيبيدوا من فيها من الجنود قبل ان يستقرون ويتمركزون فيغتنموا أسلحتهم. وفي هجمة معاكسة من هجماتهم هذه في ليلة الرابع من أيار خصوصاً، قتلوا (٧٢) جنديا وغنموا ستا واربعين قطعة سلاح مابين بندقية ومسدس اتوماتيكي ورشاش. وحدثني (سعيد) وهو واحد من المبرزين في هذه الواقعة التي امتازت بالجرأة النادرة وبالفائدة المادية في الوقت نفسه فقال:

ـ سعينا اليهم و باغتناهم بهجومنا ونحن نطلق صيحات الحرب فتنادوا: هيا بنا نعود فليس هذا بالمكان الصالح لنا. الا اننا لم ندع لهم وقتا للعودة.

وفي بضع ساعات من ليلة ٦/٧ أيار افلح البيشمرگه في استرداد ثمانية مواقع حصينة من أصل عشر مواقع خسروها قبلا، وان يستولوا على غنائم حربية كما هو بديهي. ومن ثم اقتنع الكرد بانهم لاقبل لهم بالمحافظة على كل جبل (زوزك) الأجرد الاقرع الذي اتت على نبته القليل قنابل الناپالم فقرروا الجلاء التدريجي عن نصفه اي السفح الغربي المطل على قرية (ديانا). اما في (هندرين) فمع ان طبيعة ارضه تختلف عن قرينه بوجود الاشجار والادغال فيه فقد بدا الموقف في الايام الاولى مضطربا وعلى درجة كبيرة من الحراجة اذ قام اللواء الرابع العراقي بقيادة العميد (محمد سعيد محمد) بحركة التفاف مستفيداً من الهجوم على (أكويان) مستهدفا مناورة مشاغلة مؤثرة ووصل به تقدمه الى ماوراء خطوط دفاع البيشمرگه. وأخذ يصعد سفوح الجبل وتقدم مسافة كبيرة، كما اندفع في الوقت نفسه الى ماوراء قرية (گوري ساتي) حتى القمة الاولى من حدبتي سنام الجمل حيث كان يوجد وراءها عدد من الاكام الثلجية واكد لي البيشمرگه (عزيز) أن هذا التقدم كلف الجيش العراقي نحوا من خمسمائة قتيل ومدفعين ثقيلين غير مرتدين واربع مصفحات هجوم.

هذه الانتصارات الاولية لم تكن بالقليلة او التافهة: ثلث جبل (هندرين) حتى القمة، ونصف جبل (زوزك). في الواقع انها كلفت المهاجمين ثمنا غاليا ورسائلهم تشهد على ذلك.

ومالبث الكرد ان رفعوا نسبة الخسائر حتى بلغت ثلاثة اضعاف ولم تعد الاليات بقادرة على اسناد المشاة وهي تتقدم صعدا وكثيرا ماكان تداخل خطوط البيشمركه الاختراقي يقضي على كل محاولة استخدام لسلاحي المدفعية والطيران وهكذا عوض البيشمركه بمهارتهم وكفاءتهم القتالية عن التفاوت العددي الكبير.

في اليومين الثامن والتاسع من أيار فتحت الجحيم ابوابها... بعد أن اصبح (هندرين) جزئياً في قبضة الحكومة وثبت اللواء مراكزه (تسلم قائده العميد محمد سعيد محمد برقية تهنئة وتقدير من بغداد لنجاحه المنقطع النظير) ركزت الجهود في جبل (زوزك) وفي عين الوقت اطلقت المدفعية نارها الحامية التي زادت عنفا بتدخل الطيران المستمر.

قال لي (علي سنجاري):

ـ من المسلم به والمتفق عليه بصورة عامة.ان هؤلاء الهمج آكلوا لحم البشر تتحكم بهم شريعة الغاب، نحن نفضل أن نباد ونُمحق على أن نشبع رغبتهم ونشفي غليلهم منا. وهكذا كان في غضون عطلة الاسبوع الرهيبة هذه استمرت معركة طاحنة يداً ليد وصدراً لصدر، واحتدمت الاشتباكات الدموية بالسلاح الابيض. يقول مثل كردي «الخنجر أخي والبندقية ابن عم» ومعناه ان النصل المرهف لايخطيء ضربته ابدا. في حين قد يخطىء السلاح الناري هدفه. وصمد البيشمركه صمودا عنيدا وأبوا ان يتزحزحوا من مواضعهم قيد أنملة، واوقعوا باللواء الثالث الذي يقوده العقيد (مظهر عبيد) مذبحة دموية كادت تقضي على وجوده قضاء مبرما. فقد خسر من افراده الفاً بين قتيل وجريح. واكد بعض الاسرى ان ضباطهم كانوا في كثير من الاحيان يحثون رجالهم الى الامام ومسدساتهم في ايديهم وفي (هندرين) ربض (فاخر) على القمة الثانية من (السنام) يأبى ان يتخلى عن شبر واحد من الارض، ثم وفي نهاية اسبوع من المعارك دارت طاحنة لارحمة فيها، أشرقت شمس العاشر من أيار عن هدوء نسبي على طول الجبهة. وانتهزت القيادة العراقية العليا هذا الهدوء لتريح اللواء الثالث المنهوك الذي اصيب بافدح الخسائر في (زوزك) فاستبدلته باللواء الخامس. وفي جبل (هندرين) ثبتت القيادة رباياها في المواقع التي احتلتها ونقلت مقادير كبيرة من الأعتدة والتجهيزات تمهيدا لهجوم جديد. هذا الهجوم أُنيط بالفوجين الاول والثاني عشر بمساندة قوية من المدفعية الجبلية. الاّ ان عين البيشمركه الثاقبة لم تخطيء متابعة هذه التحركات.

في الحادي عشر من ايار عندما كان العميد (محمد سعيد محمد) يتقلد وسام النصر جراء ماحققه من تقدم. اندفع اللواء الخامس بشعو ر الحسد من التكريم والتقدير الذي حُبي به اللواء الرابع، لتطويق سائر (زوزك) والاستيلاء عليه. وفي الساعات الاولى من عصر ذلك اليوم راح البيشمركه يواجهون موجات بشرية تطبق عليهم من كل جانب، وقنابل الناپالم بل حامض الكبريت المحرق ينصب عليهم بقسوة لامثيل لها فلم يروا بدا من النزول عن مزيد من الارض. الا انهم حملوا على المهاجمين في الساعة الخامسة بعد الظهر ودفعوا بهم الى مواقعهم التي بدأوا منها هجومهم. فكانت ضربة خاطفة غير متوقعة

واستمرت المعارك بالسلاح الابيض طوال الليل وقد وصفها ضابط عراقي فيما بعد بهذه العبارة قال:

ـ أواجهت في حياتك عاصفة هوجاء وانت على منحدر من الارض تبلغ زاوية مِيله ٤٥ درجة، في ظلام دامس وعلى ارتفاع الف متر وامامك عدو خفيف الحركة لاتقوى عيناك على رؤيته؟

هذه المقاومة البطولية في (زوزك) تجاوب صداها المأثرة الباهرة التي حققها المدافعون عن جبل (هندرين) أمضى فاخر صباحه في الاستعداد لهجوم معاكس مباغت هدفه احباط الهجوم الجديد. وقد احتفظتُ شخصيا بالمخطط الاصلي لهذه العملية الهجومية طبق مارسمه المُصمم على ورقة من دفتر ملحوظات. كان (فاخر) الوسيم الوجه الطويل القامة المتين الالواح قد اطلق في تلك الفترة من الزمن لحية تشبه لحية (فيدل كاسترو) تماما وحلف بالاّ يزيلها حتى يأتيه النصر. وكان قد هيأ نصف دزينة من مدافع الهاون لاسناد قوته الصغيرة حرصا منه على اجتناب الهزيمة باي ثمن ولئلا يقع جبل (هندرين) كله بايدي العدو وهي الكارثة العظمى التي ستكون في الوقت نفسه بداية النهاية. لان هذه القمة وهي الأكثر ارتفاعا من اخواتها تسيطر على ذرى (زوزك) وتؤلف محور الدفاع الرئيسي ومفتاحه. قال (فاخر) موضحا وعيناه السوداوان تبرقان في بشرة وجه لوّحتها الشمس.

ـ خطة غريبة بين الخطط، تعتمد على الجرأة وعلى مقدار الخوف الذي تشيعه في نفوس العدو. زد على هذا ان نجاحهم الاولي بث فيهم الثقة والاعتداد حتى انهم ماكانوا يتوقعون قط هجوما معاكسا نقوم به. واستعدادهم للزحف النهائي لهو دليل على ذلك. ان تأثير المفاجأة اذن سيكون فيه فصل الخطاب.

كان الجيب المتقدم في العمق تحت أمرة العميد (محمد سعيد محمد) قد حقق تقدما قدره اثنا عشر كيلومترا ابتداء من (رواندوز). هذا الجيب كّون مثلثا غير منتظم دُق رأسه كما يدق الاسفين في الجبل حتى انتهى رأسه بالقمة الاولى لجبل (هندرين)، اما قاعدته فكانت واسعة جداً وضلعاه طويلان عرضة للهجوم رغم الجهود التي بذلت لتقويتهما بالتحكيم. وعلى هذا الاساس جزأ (فاخر) قواته الى أرهاط محدودة العدد زحفت في ليلة ١٢/١١ أيار وفي فجره ايضا لتتخذ مواقعها على جهتي القوات المرابطة في ضلعي المثلث. واستبق لنفسه مدفع الهاون ونواة صدامية من البيشمركه أمر افرادها بصورة قاطعة ان لايأتوا بأية حركة قبل ان تشيع هجمات البيشمركه المغيرين الفزع بالعدو. واوضح لي قائلاً:

ـ كان اندفاعنا والحالة هذه سيتم في القلب. وبذلك سنكون همزة الوصل لكل عناصرنا الهجومية وكان هدفنا الاول إحكام عملية التطويق على المدفعية والمواد الحربية.

واوضح افكاره بالمخطط الذي احتفظت به على سبيل الذكرى. فحدد الجيب العراقي المثلث بالحبر الاسود تتخلله دوائر صغيرة خضراء تمثل المواقع الحادة الزوايا والمضلعة. واما السهام التي لونها بالأحمر فهي تشير الى النقاط التي بدأ منها هجوم المغاوير

واتجاهات الهجوم. واشير في المخطط الى مواقع المدافع ومدافع الهاون والتحصينات وقلعة رواندوز. ذلك ان القائد الكردي المقدام كان ينوي الوصول بالمعركة حتى عتبات المدينة نفسها.

وتعينت ساعة الصفر لبدء الهجوم الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي. وفي الوقت المحدد فتحت نار حامية من سفوح (هندرين) استمراريتها واتساع رقعتها أوهما الجيش العراقي بان عدد المهاجمين كبير جداً، وبوغتوا بهذا الاندفاع الكبير الذي قدروا ان يكون شاملا يمتد حتى مؤخرتهم. فاحجموا عن الاستعانة بالمدفعية الثقيلة في منخفض (رواندوز) او بالطيران خوفا من ان يجدوا انفسهم تحت نيران مدافع ميدانهم و قنابل طائراتهم. وشاهدوا البيشمرگه يبرزون من مكامنهم مطلقين صيحات عالية، ينزلقون من قنن اشجار البلوط ويتواثبون فوق الصخور وقد جعلوا في عمائمهم اعشابا خضراء للتخفية فابدى الجنود مقاومة ضعيفة مترددة ثم مالبثوا ان تخلوا عن مواقعهم بسبب الرعب الذي استولى عليهم، الا ان الهزيمة كانت سريعة بحيث لم يتيحوا للمهاجمين فرصة "اتقاط انفاسهم او مجالا للتوقف وفكرت قيادتهم في جلب النجدات من كل مكان الا انها اضطرت في الوقت نفسه الى الانسحاب الجزئي من القمة وسحب قسم من المدفعية لاطلاقها من جناحي الجيب المثلث. فكانت فرصة (فاخر) المنشودة التي لم يأمل خيرا منها، فحمل على القلب بجماعته تسانده نار مدافع الهاون (٢عقدة) ومالبث هجومه ان فتح ثغرة في الوسط وشتت شمل المدافعين فتبعثروا واندفع الى المركز وشاعت الهزيمة بين الصفوف وسادتهم فوضى وانحلال عظيمين، وفي فترة من الزمن لايصدقها الا شاهد عيان ابيدت كل الربايا ووجدت الوحدات العراقية نفسها تحت طائل التطويق والمطاردة من كل ناحية. فكادوا يجنون فزعا وراحوا يستسلمون زرافات، او يلقوا باسلحتهم ويطلقون سيقانهم للريح نزولا نحو (رواندوز) في فوضى شاملة لايمكن وصفها. واختلط الحابل بالنابل فلم يعد احد يميز المقاوم من الهارب أو المستسلم، الا ان البيشمرگه بفضل خفتهم وسرعتهم الشبيهة بسرعة الظباء سبقوا المدحورين الى قاعدة الجبل ووصلوه قبل ان يبلغه القسم الاكبر الباقي من عدوهم. وكانوا يهبطون السفوح يهتفون هتاف النصر ممتزجا بالشتائم والوعيد. ثم انهم احاطوا بالفلول المنهزمة على بعد ستمائة متر لااكثر من موقع (رواندوز) المحكم التحصين. وشل الفزع والذهول حركة الحامية في المدينة أو لعل الخوف من هجوم عليها جعلها اكثر حذرا فظلت قابعة جامدة لاتأتي بعمل خلا قيامها بتغطية انسحاب المنهزمين اليها. واطلق ضابط عراقي نداء استغاثة عبر الاثير فالتقطته اجهزة البيشمرگه. كان هذا النداء دقيقا في ايضاح ابعاد الهزيمة وفداحتها، هتف الصوت بلهجة المتوسل:

ـ لخاطر الله وخاطر سيدنا (محمد) انقذونا! لم يعد ثم من يقاتل. الكل يفر هاربا! لقد شتت شمل وحدتنا وتفرق الجاش من كل ناحية! والهزيمة عامة. كل اعتدتنا ومهماتنا وقعت غنيمة بيد العدو ارسلوا طائرات مع الناپالم على الفور والا انتهى أمرنا ليس من احد يرد على نداءاتنا. لقد احتل المتمردون مواقعنا كلها!

وكأن ثم من يشجع هذا الضابط في (هندرين) من الطرف الاخر ويحثه على الصمود مهما كلفه الامر لذلك سُمع وهو يرسل هذا النداء الختامي:

ـ الا تدركون ان هذا يوم القيامة!

في هذه الفوضى العامة الهائلة لم يكن بوسع المدفعية او الطيران التدخل بشكل فعال، فأكثر القتال كان يجري التحاماً بالسلاح الابيض والخناجر ولم يكن للبندقية سهم. ولذلك ماكان يوجد تعبير ينطبق على المطاردة في سفوح (هندرين) باشجارها وعوسجها أصدق من قولك مطاردة الرجل كما يطارد الارنب! ان المرء لايسعه الا ان يعجب ويتساءل كيف تسنى للپيشمرگه ان يتحاشوا الفتك بعضهم ببعض وهم منطلقون كالاعصار والبالغين اقصى درجة من الهياج والمندفعين كالمردة من كل جهة. في مجرى هذه المعركة الخاطفة (انتهت في الساعة السابعة مساء ودامت مائة وثمانين دقيقة بالضبط) تستوقف المرء مشاهد ووقائع تفوق الخيال. كان (عزيز) الشهير القادم من (به رسرين) يزأر كالأسد وقد انحلت لفات من عمامته ولم يكن يشعر او يبالي. عرفتُه ذات ليلة في كهف جبلي اتخذ مستودعا للاسلحة وكان يضع فيه الغام وقنابل يدوية من انابيب معدنية تحشى بالمتفجرات، وكان قد علم باني موجود في الجبهة فأقبل يصيح مرحبا:

ـ بون سوار لوفرانسيه (مسيت بالخير يافرنسي) ڤيڤ لافرانس (عاشت فرنسا!)

فاتجهت اليه وانا اجوس من خلال اكداس السلاح الذي اغتنم اثر معارك سابقة وقد علتني الدهشة. اني لم التق قبل الان بپيشمرگه يتكلم لغتنا. وهذا الهتاف «ڤيڤ لافرانس» في كهف من كهوف كردستان الذي دوّى في اذني كهزيم المدافع جعلني أستنجد بكل حواسي لأقربه الى عالم الحقيقة. وبنفس الاندفاع العاطفي الذي شاع في نفس (عزيز) دفعت راحة يدي الى راحة يده وانا اردد قائلا:

ـ فرنسي! شكرا. فرنسي شكرا!....

تلك هي الحقيقة بعينها. ولم يدر بخلدنا ان مفاجأة لقاء ثان كانت في انتظارنا. فدوام التنقل والترحال لم يسمح لي بالتفكير في أني قد أمر بدقائق من تجربة هذه المشاركة الوجدانية الملأى بالعاطفة وبمظاهر الحب الذي يغمر القلب حتى يمس شغافه عند سماعي هتفةً بحياة شعبي وحياة بلادي. وقد اوضح لي (عزيز) انه كان في السنوات ١٩٥٦و١٩٥٧و١٩٥٨ يعمل مراقبا للعمل في مشروع سد (دوكان) تحت اشراف مهندسين فرنسيين ثلاثة هم ليستراد Iestrade وميشو Mechonوتيللو Tillot و منهم تعلم مباديء لغتنا وصار يقوم لهم بمهمة الترجمة. الا ان الفرصة لم تسنح له في غضون السنوات الثماني التالية بممارسة ماالتقطته، لذلك كان اللحن واضحا في العبارات التي تفوه بها وهذا مازاد من اضطرابي العاطفي. انضوى الى صفوف الپيشمرگه منذ الايام الاولى للثورة في العام ١٩٦١ وخاض غمار معاركها بكبرياء وشرف. راح يخاطبني بصيغة الجمع ويرفع من قدري فأجبته بالمثل. في كهف (علي بابا) هذا الجهنمي حيث يختزن الموت كنوزه، وجد (عزيز) بعملية كيمائية خاطفة، الوسيلة التى مكنته من اعداد الشاي.

وانقلبنا بعد ان احتسينا جرعتين صديقين من خير الاصدقاء واقربهم الى القلب. كان (عزيز) يحلم بـ (بازوكا).. اذ قال:

ـ كان لديّ بازوكا فيما مضى، وقد نال العدو منها ضرّ كبير، اذ تلفت على أثر قصف مدفعي مع اسفي الشديد. وانا الان اعتمد على مسدسي الاتوماتيكي وبندقيتي... بندقية چيكية ذات سبطانة طويلة الا انها لاتخطيء هدفها مطلقا، وانا افضلها على كل الاسلحة التي جمعتها من قتلى العدو في هذا اليوم. بنادق روسية حربتها تطوى مثل شفرة المطواة... ليس في الامكان ابدع مما كان... آه لو اني ملكت بازوكا أخرى! لحطمتهم هؤلاء الرعاديد الادنياء!...

كان عزيز واحداً من المقربين المعتمد عليهم لدى (فاخر) وكنت تراه في عصر ذاك اليوم الثاني عشرة من ايار ينط من صخرة الى صخرة ومسدسه الاتوماتيكي تحت ابطه وهو يصيح بالفرنسية اكسرهم كلهم اكسرهم كلهم!. كان رائعا في هياجه الوحشي. وعلى حين غرة برز له ضابط برتبة نقيب من وراء شجرة بلوط فلم يمهله واصلاه بدفقة من رصاصه دون ان تخالجه رحمة فانحنى الضابط الى الامام وزاغت رجلاه. حاول ان يقف ثم سقط على ظهره فقد استقرت احدى الرصاصات في رقبته وانبثق الدم منها غزيراً وشاعت في جسده المسجي فوق العشب رعشات متوالية لاارادية ورشق قاتله بعين كليلة غشاها الظلام. فقلب (عزيز) الجثة بطرف قدمه حتى لاتشهد عينه منظر وداع صامت لهذا العالم. ثم عقب ببساطة متناهية:

ـ كم هو محزن هذا الموقف!

قال هذا وألوى مستأنفا تعقيب الفارين وكان هذا النقيب يدعى (حميد). وعلى مسافة كان الاخوان (عبد الله وحكمت) إبنا (حسين) من (زاخو) واظنهما توأمين. احدهما نسخة صادقة من الاخر بهيكليهما النحيفين وتقاسيم وجهيهما المتطابقين. شاهدتهما يحملان على العدو كتفا لكتف غير آبهين للمدفع الرشاش الذي كان رصاصه يهصر الأغصان هصرا ويرتطم بالصخر فيسحقها سحقا. وكان يلازمهما رفيقهما (نعمان) ابن بلدهما الذي لايفترق عنهما. رأيت اشعة الشمس الغاربة تنعكس على خناجرهم نصف المجردة فتبرق بريقا يخطف البصر. كانوا ينشرون الدمار والويل ويمزقون ويفتكون دون تريث ولاوقفة. الطعنة تتلو الطعنة دراكا لايطيقون صبرا على رؤية جندي من العدو منتصبا على قدميه حتى يطرحوه ارضا. وكانت الجثث تتراكم من حولهم فتعيق تقدمهم وقال (عبد الله) يريد تبرير المذبحة:

ـ انهم كثيرون جدا ونحن أعجز عن حراستهم.

حقيقة قاسية تكمن في هذا العذر والحق يقال. ولكن عليك ان تحسب حساب الهياج النفسي والتوتر العصبي الذي تراكم خلال عشرة ايام قضاها البيشمركه لم تكتحل اعينهم بالنوم دقيقة واحدة في خضم معركة متواصلة وتحت وابل مستمر من القنابل. كذلك هناك التعطش لأخذ ثأر كل النساء وكل الاطفال الذين طوردوا وشردوا ولوحقوا منذ خمس سنين كما تُطَّرد الأرانب.

وفوجيء الضباط العراقيون وهم جالسون في مقرات قياداتهم فاطلقوا سيقانهم للريح مخلفين وراءهم قناني البيرة واقداح نصف مليئة بها، وسيكاير، وولاعات، واضابير، وعصي سير، ومخابرات بينها البرقية التقديرية للجنود والبرقية التي حملت للجنرال (محمد سعيد محمد) نبأ تقليده الوسام. وكان ثم فردة حذاء لقدم يسرى وخوذة قائد. وعثر كذلك على جثة دون رأس بفردة حذاء واحد في القدم اليمنى كذلك أحصى جثث أربعة عشر ضابطا من مختلف الرتب ملقاة على الارض بينها جثة آمر المدفعية الجبلية (فادي الحاج محمد). وكانت الغنائم التي وقعت بيد المنتصرين تُعادل الدمار الذي لحق بالمندحرين.

ستة مدافع عيار (٧٥) ملمترا، واربعة مدافع من طراز غير المرتد، واربعة مدافع هاون ثقيلة امريكية الصنع عيار (٤ عقدة)، وثمانية مدافع هاون أنكليزية الصنع عيار (٣ عقدة) واربع مدافع هاون عيار (٨١ ملمترا). وخمسة رشاشات ثقيلة من نوع ڤيكرز، واربعة واربعون رشاش برين، وأكثر من ألف بندقية مازور وثلاثمائة رشاش سترلنگ، ومقدار كبير من مختلف انواع الاسلحة الخفيفة، وستة وأربعون جهاز لاسلكي للاستقبال وللارسال، وراديو اتصال هوائي ـ أرضي، ومائة خيمة عسكرية، وستة آلاف بطانية، وأطنان من العتاد مكدسة في صناديق ضُرب على وجهها نقش لعلم اميريكي وتحتها (ويالسخرية المفارقة وقبحها!) رقعة رسم عليها الكف ممتدة بهيئة مصافحة أخوية. وكان ثمة تجهيزات يتعذر احصاؤها وكميات كبيرة من المؤن والارزاق. في الواقع لم يدع البيشمرگه من قبل الى حفلة زواج كهذه الحفلة. تذوقنا على مهلنا شيئا من الجراية العسكرية العراقية وهي انكلوسكوسونية المنشأ. ولقد وجدت لبن الجبال الكردي الذ من الجبن المعلب المستورد من استراليا. وقدمت لي لفائف من السكاير التركية[٣] وكاد البيشمرگه يتخمون من اكل البسكويت الغني الجيد وهنا وجدت (عزيزا) يمسك عن شتم الامريكيين والانكليز والروس المحتالين، اولئك الذين يزعقون بأعلى الحناجر دفاعاً عن السلم ثم يساعدون حكومة بغداد على شن الحرب وافصح عن رأي شيق لطيف فقال مستطردا:

ـ السلم عندهم يعني نقل الحرب الى أرض الجار.

على انه كان يشعر في تلك الليلة بانه مفعم بعرفان الجميل والامتنان امام الاكداس الكبيرة من الغنائم التي كان يلزم لنقلها في رأيه أكثر من مائتي بغل. وكانت حصته من الغنيمة في ساحة المعركة البازوكا التي صبا اليها. راح يداعب ماسورة هذا السلاح مداعبة محب ولهان وهو يتوثب حبورا ويردد تلك العبارة التي لازمت شفتيه في المعركة.

ـ اكسرهم كلهم... اكسرهم كلهم!

٣ـ يقصد بطبيعة الحال السكاير العراقية فبعض الفرنسيين مازالوا يطلقون عليها هذا الاسم. (المترجم)

ان كان قد كتب لبعضهم النجاة فان الاسرى كانوا قليلين. في أوج احتدام المعركة صارت الأفواه تتناقل اشاعات متناقضة بسرعة الرصاص. فوردت انباء عن وقوع ألف و ثلاثمائة اسير في ايدي البيشمركه لم يزعم أحد انه رآهم. وعند استفساري عنهم، قيل لي اني أحلم، فليس ثم شيء من هذا القبيل. واكد لي احد الذين كتبت لهم النجاة ووصل بغداد سعيا على قدميه وهو يكاد يموت رعبا من تذكر المصير الذي كان ينتظره فقال انه عاش اعظم المعارك طرا. انها لتشبه العماد بالنار، وان اعصابه تثور كلما تذكر مامرّ به وحدثني قائلا:

ـ يبرز الكرد فجأة وكأن الارض تنشق ويثبون من فوق الاشجار كالطيور فيصيحون بنا بالعربية «سنبيدكم جميعا! أمستعدون انتم لدخول الجنة؟» لقد شاهدت كثيراً من جثث القتلى. واني لاعجب كيف بقيت على قيد الحياة من بين هؤلاء.

واعطاه (عزيز) قطعة من الخبز وهو يقول:

ـ حسنا فعلت بفرارك السريع، في مثل هذه الاحول من الافضل ان يغتنم المرء فرصته ولايتلكأ.

لم يجر احصاء لجثث القتلى... فهم حسب قول (فاخر) لايقلون عن الفين. وكانت الجثث في كل مكان. تراها في أضغاث العشب وتحت جذوع الاشجار ووراء كل صخرة. ولفظ الجرحى انفاسهم وهم في الموضع الذي اصيبوا به وتحولت سفوح (هندرين) الى مجمع مقابر كبير ومالبثت رائحة الجو أن فسدت بما انبعث من الجيف ولم يكن ثم شك في أن معظمها صار طعاماً لسباع الجبال ووحوشها. وبعد حين من الزمن اثبتت القيادة العراقية عدد القتلى بألف ومائتين، ببرقية موجهة الى السلطات في بغداد وتلك خسائر الفرقة الثانية فحسب. شرعت السلطة بوضع اليد على المستشفيات الاهلية في مدن السهول الكبرى كأربيل والموصل وكركوك وسليمانية. لارسال الجرحى اليها من جبهة (رواندوز) كما انها لجأت الى اخلاء كثير من بنايات المدارس لنقل الزمنى والمرضى الذين كانوا راقدين في تلك المستشفيات. ومما يذكر ان العميد (الانصاري) انفجر باكيا عندما بلغه نبأ (هندرين). اما (ملا مصطفى) فقد بادر الى العمل الوحيد الذي لم يقم بمثله طوال حياته العسكرية، اذ وجه رسالة تقدير لجنوده ومن اهم ماجاء فيها. اني لشديد الفخر بكم... ان الانتصار الذي حققتموه في سبيل ضمان حقوقنا العادلة هو نصر لاللثورة وحدها بل لجميع الديمقراطيين في العراق وكانت عيناه تومضان ببريق الغبطة كلما استذكر في مقره تلك المعركة. فيعيد بين الفينة والفينة تخطيطها وتثبيت المواقع بقطع صغيرة من الورق. وقد اقترح في حينه هدنة لمدة اربع وعشرين ساعة يقوم خلالها الصليب الاحمر الدولي بالاشراف على دفن الموتى المبعثرة اشلاؤهم في ساحة المعركة أمام (رواندوز) وحذر في اقتراحه هذا من خطر الوباء. وكان لندائه هذا اطيب الوقع في (جنيف) وكعادة الهلال الاحمر العراقي لم يستجب لاقتراحه، ولم يحصل لديه أي رد فعل. وفي شهر آب التالي، وقعت اصابات بالكوليرا في محافظات كركوك وديالي، فاضطرت حكومة بغداد الى وضع الحجر الصحي على المناطق الشمالية، وناشدت منظمة الصحة العالمية

التدخل. فارسلت بعثة خبراء صحيين وزودتهم بمائتي الف لقاح ضد العدوى. وكانت البعثة برئاسة الدكتور (اوسكار فلسنفيد) De Oskar Felsenfeld.

شاءت الصدف الغريبة ان يكون اللواء (شكري) وزير الدفاع متابعا جولته التفتيشية في مختلف انحاء الجبهة ساعة نشوب معركة (هندرين)[٤] جاء باحثا عن نصر عسكري، لكنه عاد يحمل نبأ هزيمة نكراء غيرت وجه الحرب تغييرا حاسما. وفي اليوم التالي للمعركة صرح البزاز[٥] رئيس الوزراء في اثناء مقابلة صحيفة «ان العنصر الاساسي الذي نحن في حاجة اليه في موقفنا الراهن هو الثقة المتبادلة. وعلى الكرد ان يعلموا بان الحكومة تدرس الان موضوع تعاون فعال معهم» فلم يتأخر راديو «صوت كردستان الحر» عن الرد اذ قال «ان المحادثات التمهيدية للمفاوضات لن تؤخذ مأخذا جديا اذا بقيت بغداد مصرة كما كان شأنها دائما على طلب حل تشكيلات البيشمرگه وتسليم سلاحهم. هذه العبارة الموجزة الدقيقة تتفق ورغبة البارزاني في الابقاء على تلك القوات في كردستان. وفي اثناء ذلك اذاع الكرد نداء جديدا للعالم يناشد بذل الجهود لوضع حد نهائي لاراقة الدماء وحقنها بالتي هي احسن. واكد البيان ان الكرد لايسعون للانفصال عن العراق مطلقا. وشجبوا اطلاق كلمة «انفصاليين» عليهم، وقالوا انها الصقت بهم لتبرير عمليات القمع، وعادوا يؤكدون اخيرا رغبتهم في التوصل الى حل يتفق روحا مع الظروف الزمنية وميثاق الامم المتحدة. وفي عين الوقت أقدم مغاوير من البيشمرگه على مهاجمة انابيب النفط العراقية في مشارف (كركوك). كما «جُست الارض» تمهيدا لفتح حوار جديد واقر المغلوب ضمنياً بفشل هجومه وترك الغالب المتفهم الباب مفتوحا لاقامة السلم الذي يريده الطرفان.

الا ان الحرب لم تفقد شيئا من حدتها خلال فترة الانتظار هذه. فعلى خطوط الجبهة كان قصف الطائرات والمدفعية قائما على قدم وساق و متمركزا في جبل (زوزك) بشكل خاص. حتى لكأن رئاسة الاركان العراقية تريد ان تمحو فشل (هندرين). اما مؤخرة الجبهة فقد كانت طائرات (آليوشن وميگ وهاوكرهنتر) تهاجم قراها وسكانها والجنود المرابطين فيها بنفس القسوة. وقال لي (سامي) يفسر هذا العمل:

ـ «اعتادت القيادة العراقية سياسة ايقاع العقاب بالسكان الآمنين على أثر كل هزيمة تنزل بساحتها!».

ففي يوم السبت الموافق للرابع عشر من أيار حين كان البيشمرگه ينظفون (هندرين)

٤ـ قبض على اللواء الركن (شاكر محمود شكري) في اواخر العام ١٩٦٨ وبقي رهن التعذيب اكثر من سنتين في (قصر النهاية) ولانعلم هل حكم او اطلق سراحه. الا ان تهمته التي تواترت الاشاعات عنها لم تختلف عن تهمة زميله الانصاري. (المترجم)

٥ـ القى القبض علـــى عبد الرحمن البزاز ووضع في قصر النهاية أكثر من سنتين بنفس التهمة ثم اطلق سراحه وهو يشكو داء زيادة الكوليسترول في الدم وقد تضاربت الاشاعات في موضوع حياته او موته ووجوده في العراق ام في الخارج. (المترجم)

من آخر جيوب للعدو فيه.كان هجوم العدو في (زوزك) مستمرا وكانت تسقط قنبلة واحدة وقذيفة مدفع ثقيل عليه بمعدل كل دقيقة ولم يعد فيه متر مربع سالماً من إصابة واحدة على الأقل. إلا ان الهجمات صدت. وفي اليوم الخامس عشر غطت السحب رقعة السماء فأصيب الطيران بالشلل. واسفرت اشتباكات متقطعة عن هزيمة واضحة (للجاش المرتزقة) فارتدوا على اعقابهم. وفي اليوم السادس عشر نشطت المدفعية الكردية التي ضوعفت في عصر اليوم السابق واطلقت على نطاق الرؤية قذائفها على مواقع العدو في (زوزك) حسب اوامر (ملا مصطفى) بمعدل «ثلاث قذائف فقط في الساعة الواحدة» إذ لاشيء يرهق اعصابهم وينهك قواهم كهذا.. فضلا عن اننا لانملك من قنابل المدفعية مايسمح لنا بالتبذير. وفي اليوم السابع عشر اعلن لي (أدريس البارزاني) بأن العدو قد تخلى عن معظم رباياه في (زوزك) بعد أن آلت هدفا مكشوفا للنار الكردية. وقال انهم سحبوا الى الخلف مدفعيتهم السليمة اجتنابا لنكسة ثانية شبيهة بمغامرتهم الفاشلة في (هندرين). وفي اليوم الثامن عشر أزال (فاخر) لحيته. لاشك في ان الطيران العراقي كان يغطي السماء دائما ولايعتري غاراته وهن. الّا ان المعارك البرية اخذت تفقد الكثير من حدتها. وبات معظمها قاصر على اشتباكات موضعية ثانوية. ان هجوم الربيع الذي كان مقدرا له ان يشتت شمل الثوار في ظرف اسبوع واحد لم يُصد وحسب وانما انقلب الى كارثة ودمار. وابدت الطائرات بعد قليل من الزمن الاعتراف بالهزيمة.عندما شرعت في قصف جسور الطريق. فان اخطأت تلك العبَّارات حاولت شل الحركة فيه بمهاجمته بالذات. واستهدفت (چومان) و(رايات) بنوع خاص. الا ان الطيارين كانوا يكنون احتراما للرشاشات الثقيلة المسددة اليهم، فلم يعمدوا الى المخاطرة ولم يتحروا الدقة في التصويب فلم يتضرر من هذه العبَّارات الا جسر (حافيز) الذي كان يقع على بعد خمسة عشر كيلومتر من (رواندوز).

أكد العقيد (القاضي) رئيس اركان البيشمركه بصرامةٍ عسكرية جازمة ان بغداد عانت اعظم هزيمة في تاريخها اذ قال:

ـ لو وضع المرء في حسابه بان الحكومة أعجز عن اعادة تأليف احسن فرقتين لديها وأكفأهما ولو تذكر باننا مزقناهم شر تمزيق، فبامكانه ان يتصور مدى خطورة نصرنا وشدة وقعه على العدو.

وباستثناء بعض المراكز في القدمة الغربية من جبل (زوزك) صار الكرد يسيطرون على سائر الجبهة. واما عن الخسائر التي مني بها الجيش المهاجم فيقدرها (القاضي) بالنظر الى المعلومات المستقاة من قيادة العدو بألفين من القتلى تقريبا خلال الايام العشرة الاولى من المعركة. ولايدخل في هذا العدد القتلى من (الجاش). ثم استطرد يقول:

ـ بحسب تقارير مسؤولي وحداتنا يرتفع عدد قتلى العدو الى نحو ثلاثة آلاف اما الجرحى فيقدرونهم بضعف هذا العدد، او بكلمة اخرى مايقارب ثلث القوة التي جُردت في ساحة القتال فضلا عن كميات هائلة من المواد الحربية تمْ تدميرها أو وقعت غنيمة حرب بأيدينا.

في الاعلى: تحت ظل الاغصان في الجبهة، من اليمين الى اليسار ادريس البارزاني في اليوم الذي اذيع نبأ مقتله من راديو بغداد، العقيد عبد الرحمن القاضي رئيس الاركان وسامي.

في الاسفل: لفيف يجلس على العشب يتباحثون ويدققون في وثائق وخرائط في المقر العام للثورة (المترجم: من اليسار الى اليمين نافذ جلال، عبد الرحمن القاضي، محمد امين بك پشدري وعلي سنجاري).

ملا مصطفى البارزاني في الامام يطلع على رسالة اوصلها اليه احد السعاة.
الى يساره (عقراوي) الممثل الكردي العتيق في القاهرة قام عبد الناصر بطرده منها.

في الاعلى: ما اسمك؟ «تحرر» وانت؟ «نضال»، لقد وجدت اخرين اطلقت عليهم اسماء من قبيل «كردستان ـ حرية ـ ثورة».

في الاسفل.
منذ خمسة اعوام من عمليات الابادة ظل الشعب الكردي يردد امثولته الخالدة ان يكون المرء حرا وان يحب وان يموت... شعب معدم وحيد مخذول ومع هذا يصر على التمسك والتشبث بهذا الامل في ثوراته وعبراته. هذه الطفلة باسمالها البالية انها تشب وتكبر تحت القنابل وفي جو من الرعب تردد رغم كل شيء رسالة الاسلاف في الاخوة «الدنيا وردة شمها واعطها لرفيقك».

من الاعلى الى الاسفل: على قمة جبل زوزك وقد تعرّت من الشجر بفعل قنابل النابالم ضابط عراقي اسر في المعركة . (المترجم من زيه يبدوانه من مرتبات الشرطة).

الصورة الاخرى: الاسرى يشاركون البيشمركه عيشة التقشف والكفاف وهم لايلقون معاملة قاسية.

l objet d aucun sevice...

في الاعلى والاسفل:
المدافع واكداس العتاد المغتنم من الجيش العراقي قبلها بايام اخفي تحت الاغصان تمويها.

مخطط معركة «هندرين» في ١٢ آيار ١٩٦٦.

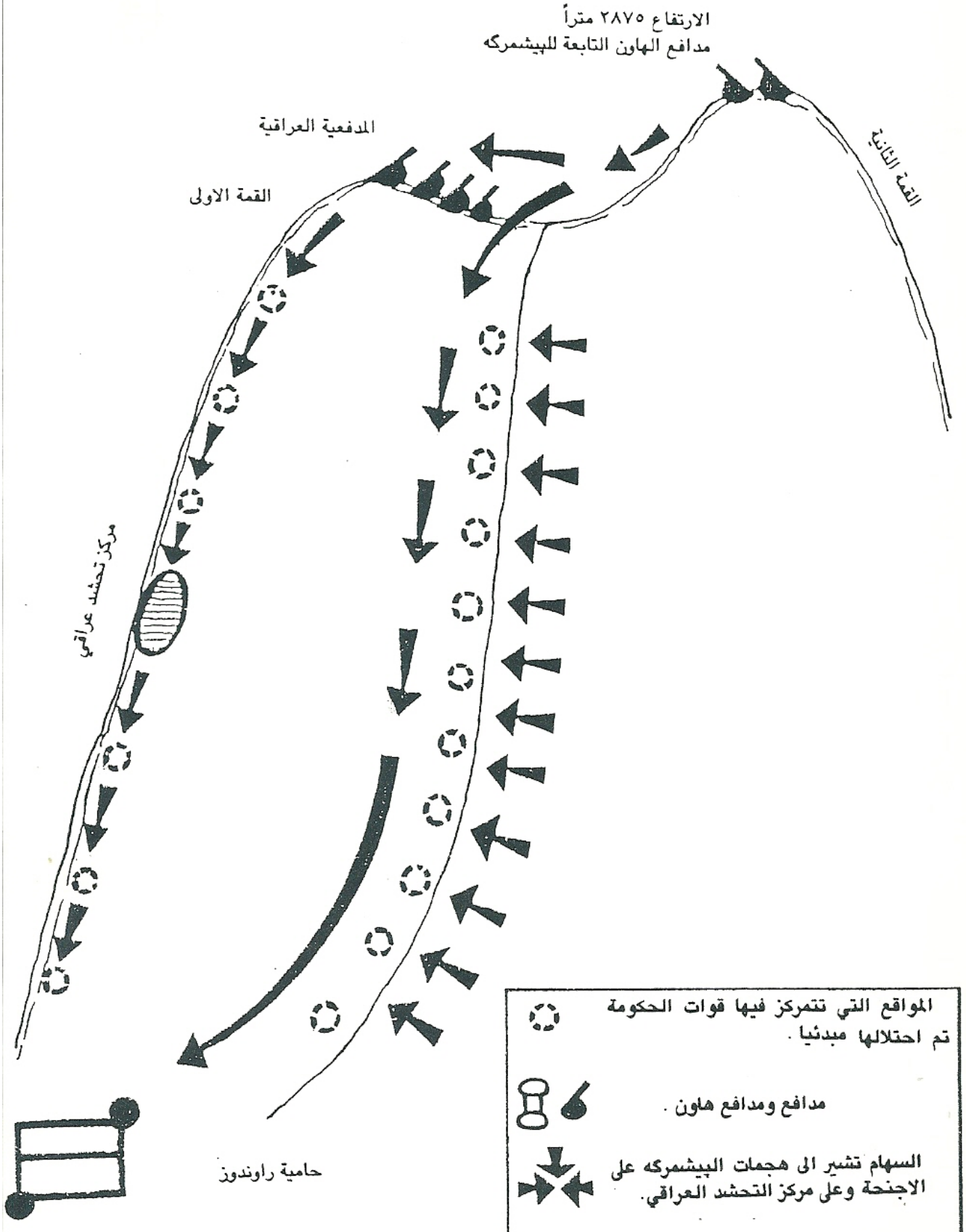

المنظر الجانبي من الاعلى

عــن المخططــات الاصلية لرئيس البيشمركه (فاخر محمد).

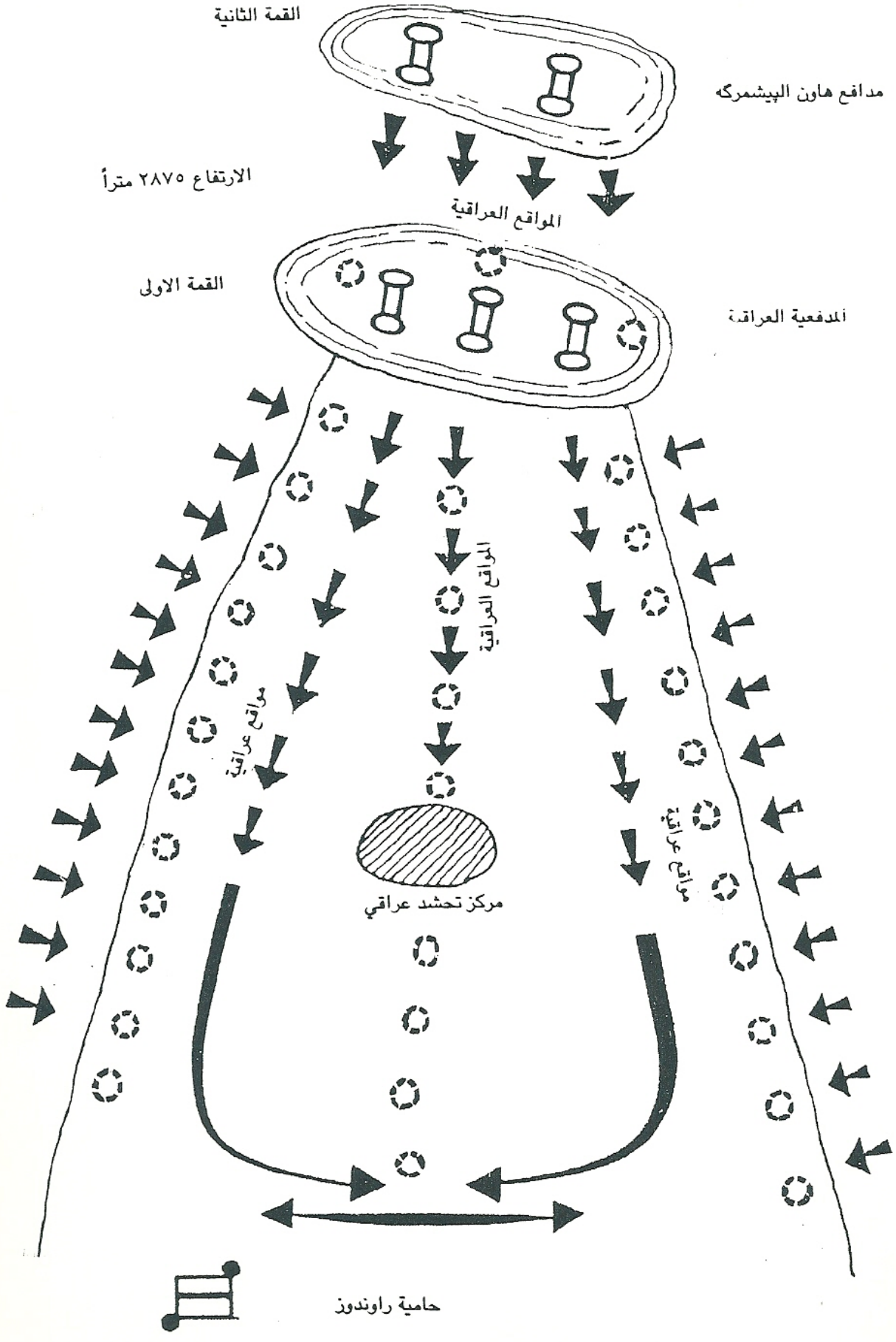

المنظر كما يرى من الاعلى

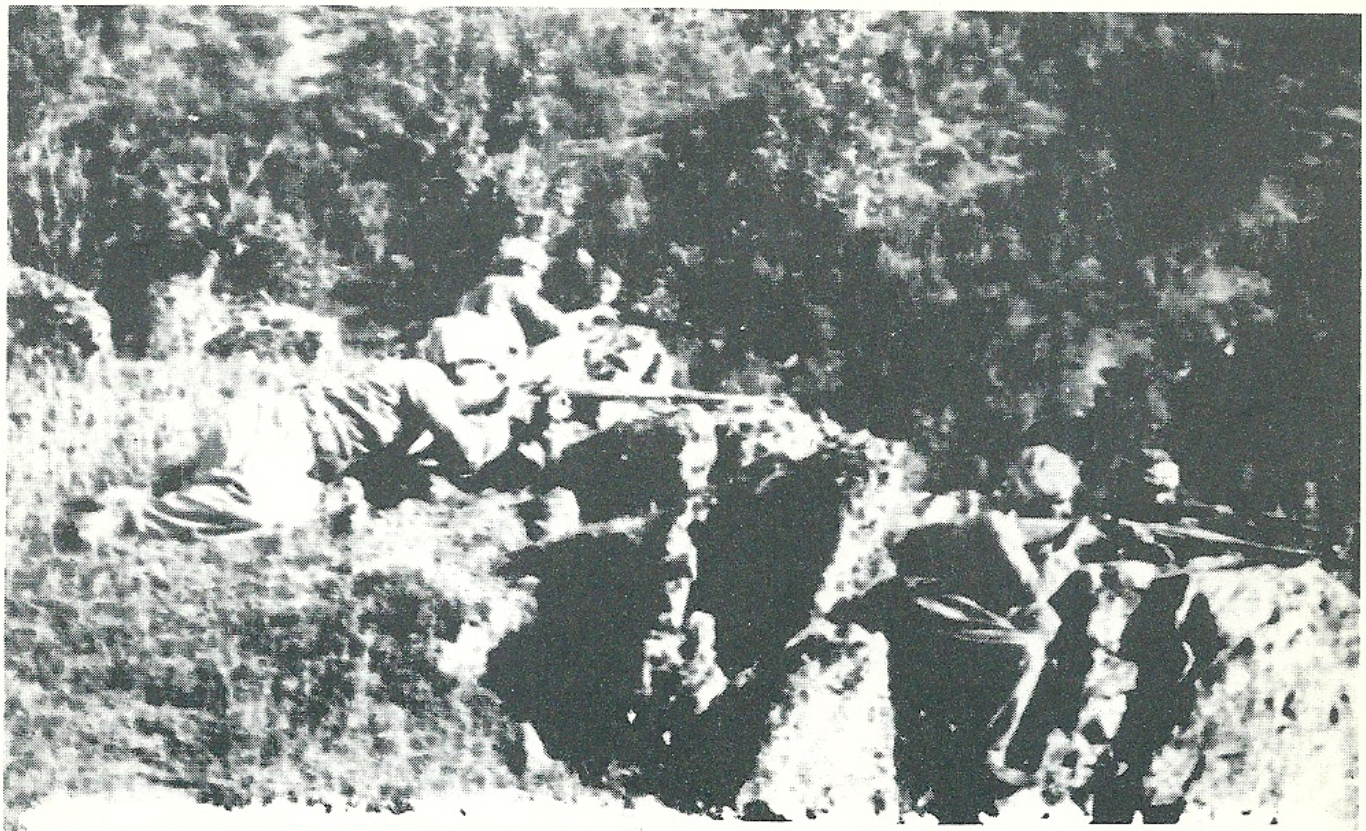

التقط رينيه موروييس هذه الصورة في ساحة القتال وقد بلغت معركة راوندوز اوجها لتحسم بنصر مبين لرجال ملا مصطفى البارزاني على الجيش العراقي في ربيع العام (١٩٦٦). كان الجسد يقع على الجسد ويتلاحمان بعنف في «قردون» الكرد هذه وعلى ارتفاع (٢٨٠٠) متر. لم يكن ثم شاهد اجنبي غير رينيه موروييس خلال اقامته بين هذا الشعب الذي اهمله التاريخ وهو يقاتل قتالا ضاريا في سبيل البقاء فحسب. المؤلف يسرد الوقائع باسلوب رزين ومؤثر ويضع امام القارىء السؤال التالي ـ لم لا يحرك العالم والقوى الاخرى ساكنا لوقف عملية الابادة الجماعية الفعلية هذه؟

وقال انه كان يرغب في ان تظفر يده بقائمة موازنة رسمية لمقابلة ذلك «كيلا نتهم بالكذب»... وحتى لو تركنا لهم هذا الاحتكار فانهم لايتمكنون من عمل شيء غير ستر هزيمتهم وتغليفها أمام الشعب وامام الرأي العام العالمي في الوقت نفسه.

في الواقع اعلنت بغداد بعد فترة قليلة ومن دون احساس بالعار بلاغات تتعلق بـ «استئصال شأفة صغار الاقزام». وقدر (القاضي) خسائر البيشمركه بما لايزيد عن مائة وخمسين من القتلى والجرحى. وقال ان هجوم (هندرين) المباغت لم يكلف غير خمسة عشر رجلاً. وأنا بدوري لااجهل ميل اي جيش من الجيوش الى التقليل من عدد قتلاه دائما. ولأجل فضح اللعبة العراقية كرهت ان اجعل نفسي شريكا في اي غش يُعزى للكرد وأبيتُ ان اقدم البيشمركه للعالم تقديماً ساذجاً بوصفهم جبابرة العصر الذين فاقوا سائر البشر ولايعرفوا الهزيمة. اني وبالموضوعية الضرورية لشهادة الحق اكتفي بالقول بأدق تعبير أن الجبل قد خلق للكردي والكردي جزء لايتجزأ من الجبل، وهو على شاكلته رائع منيف تراه حاميا ورفيقا له انه ليُرهق العدو ويستل من صدره آخر انفاسه. ان اصغر صخرة تقف عقبة وترسا، وأضيق خانق هو عرين، وكل عطفة هي فخ. لقد حبته الطبيعة بأمضى سلاح وأفضله. تحققت تدريجياً من تأثير هذه الميزات الحربية التي اتى (شير) الى وصفها عشية دخول ارض كردستان. ان الكردي مع كونه جبليا قلبا وقالبا فهو فارس ايضا. تراه يعدو بجواده كالبرق الخاطف بين المنحدرات وفوق الممرات الجبلية ذات الزوايا الحادة قطعة واحدة ملتحمة هو وحصانه الصغير الرشيق الخفيف الحركة الذي لايكبو ولايجمح براكبه قط. ولضيق ذات يده ونذرة سلاحه تراه دائما لايهاجم الا اذا وجد النصر مضمونا، مستفيدا من ميزة الارض ومنتفعا بعامل المفاجأة. واذا اضطر الى اتخاذ موقف دفاع عوض عن قلته العددية وافتقاره الى الوسائل باستفادته التامة من البيئة، وهي طبيعة ثانية فيه. غريزته اكبر بعشرة اضعاف من ذكائه وحيلته وخفته. ولااتعدى الحقيقة بقولي ان الكردي الواحد قادر بكل سهولة على مواجهة عشرة من الاعداء، قدرته على مواجهة الجنود النظاميين اسرى تجهيزاتهم العسكرية وفرائس مشكلات التوازن في القوة قبل كل شيء. وعلينا ان لانغفل ايضا عن شجاعتهم وتلك ميزة متوارثة كادت تنقلب الى اسطورة، ولدتها وربتها حياة غليظة خشنة لاتعرف الرحمة معرضة دوما لقسوة الطبيعة وعدوان البشر. أخيرا وفوق كل شيء فان البيشمركه يملك الايمان. إنه يؤمن بعدالة قضيته ورسالة موتاه المتوارثة عبر الاجيال التي يخلّد ذكراها بانصاب المقابر وملاحم البطولة. هذه العقيدة وهذا الاخلاص لها يزودانه بكل العزم والجرأة اللتين تجدهما فيه وهما ميراث يرثه الصغار عن الكبار عموما بفضل المثل المضروب من السلف الى الخلف. كذلك يصعب علينا ان نتفهم أصالة الحافز الذي يدفع بهذا الشعب الممتاز الى خوض غمار الحرب على ضوء انحلال مجتمعنا المغرق في مدنيته. ويخيل لي انه يمكن ان نضع اكبر الرصيد في صلابته. وبهذا الشاهد القوي يتفق رأي ورأي كل من كان على صلة وثيقة بالكردوعاش بينهم كالاب (توماس بوا) الذي يشيد بنقاء مشاعرهم وصفائها. اوكأرشيبالد ماين هاملتون الذي لم يكف ابدا عن اطراء شجاعة هذا الشعب وامتداح صدقه المثالي.

في الواقت الذي باشر البيشمركه باستعادة (زوزك) ذلك الجبل النحس رمز الدمار والخراب الذي انتزعته الحرب في زوايا الخمول. والسيطرة على انحائه بالتدريج. شرع الآثوريون في جبهة (زاخو) يضيقون الخناق على قوات الحكومة ويكثرون من التعرض لها للحيلولة دون اتخاذها العدة لآخر وقفة في ساحة معركة (رواندوز) وبهذه المناسبة قال لي (القاضي):

ـ لاارى كيف سيمكنهم القيام بذلك. اذ يقتضي لهم زمن لاعادة تنظيم وتدريب وحدات الصاعقة التي سحقناها.

زادت الهزيمة العسكرية من سرعة دوامة سياسية في العراق ذات مغزى بل وتلفت النظر. هذه الحرب المكروهة المنهكة ولّدت مظاهر عنف في قلب المدن الامنة القريبة من الجبهة. ففي أربيل وسليمانية راح الجنود والشرطة يطلقون نارهم على الاهالي جزافا فسقط عشرات القتلى والجرحى. وفي (رواندوز) نفسها قام الجيش بقمع وحشي لتظاهرة مكونة من عوائل الجنود الذين قتلوا في الجبهة واكد مراسلون أجانب في بغداد انه لم تبق اسرة عراقية واحدة الا وقد فُجعت بقريب أو صديق قتل أو جرح خلال هذه السنوات الخمس من الحرب الكردية. وقابل هبوط في حدة المعارك تصاعد في الحقد الجماهيري. ولم يتورع اللواء (زكي حسين حلمي) القائد العام المدحور منه تهدئة الخواطر من نشر بيان زعم فيه تطهير كل الجيوب الكردية: جبل (هندرين) في ظرف ست وعشرين ساعة، وجبل (زوزك) في غضون اثنتين وسبعين ساعة وبيرامار في اربع ساعات. في حين اعترف بان منطقة رواندوز مازالت تروع بالمتمردين وزعم ان خسارة الجيش في كل هذه العمليات لاتعدو الاربعين بين قتيل او جريح. وفي اثناء ذلك ارسل الرئيس (عارف) سرًا وفدا الى (ملا مصطفى) الذي عُلل دائما بوعود وتعهدات لم تتحقق. فرفض الزعيم الكردي الدخول في اي حوار قبل ان يكون بين يديه الحد الادنى من الضمانات. كان هو الجانب المنتصر لذلك كان يملك الدور المزدوج الكبير: الحقّ والعدالة من جهة والقوة من جهة اخرى. وظلت الاحداث تتوالى طوال شهر أيار وفي اليوم الاول من حزيران الغم انبوب شركة نفط العراق الممتد مابين كركوك وبغداد وفُجّر. وتابعت الطائرات غاراتها الثأرية حتى نهار الاحد الموافق للثاني عشر من حزيران. وفي الثالث عشر منه وقد اعتبر يوم (القدر) في تاريخ العلاقات الكردية ـ العراقية. ساد سكون عام في ارجاء كردستان في البر والجو غريب عن المألوف. ولاذ الجميع بالصمت المطبق وبعد مرور ساعات الصباح الاولى كان كل امرء خلالها يتساءل ويتوقع حدثا كبيرا. دبت الشجاعة في نفوس اللاجئين الى الجبال، فاخذوا يهبطون الى قراهم وراح نبأ واحد يتنقل بسرعة البرق في ساعات العصر مؤداه ان الحكومة العراقية تنشد السلام. هذا النبأ لم يثر حماسة آنية ولم يبلغ حد الثقة بالوصول الى نهاية حقة للاعمال العدوانية، بعد الكثير من المخادعة على انه احدث انفراجا عميقا وأزكي نار الأمل الذي كان يختلج في افئدة الجميع باقدار متفاوتة.

وحقيقة الامر، هو أن (ملا مصطفى) أُبلغ بطلب من رئاسة الاركان العراقية ترجو فيه السماح لوفد مصالحة يتألف من مبعوثين كرد مخولين رسميا من قبل رئيس الوزراء (البزاز) بالمرور عبر خطوط القتال فقبل (ملا مصطفى) الوفادة. وفي صباح الخامس عشر من حزيران بينما كان سكان قطاع (رواندوز) يعاودون حياتهم المألوفة شرع المندوبون القادمون من بغداد باجتياز الارض الحرام التي تفصل مابين المتحاربين يتقدمهم علم ابيض متجهين الى قرية (خه لكان) وهي أول قدمة في طريق (هاملتون) تقع على بعد عشرة كيلومترات من رواندوز. ومن هذا الموقع واصلوا رحلتهم في سيارات جيب حتى (حاج عمران) آخر قرية قبل الحدود الايرانية على الطرف الايسر من الطريق. لاشك ان (البارزاني) كان يسره ركوع الحكومة العراقية على ركبة واحدة في الوقت الذي اخذت تداعب مخيلته فكرة الاحتفال بنصره واستقبل الوفد في بيت صغير حديث البناء من بيوت القرية امامه نبع ماء عذب بارد يخرج من اعماق الارض يعزى اليه مقدرة علاجية لشتى العوارض المرضية. وفوق هذا النبع مصرف مياه يصب في حوض مسقوف يمكن استخدامه في الوقت نفسه بمثابة حوض سباحة ومغسل ودورة مياه وهو امر يخالف المألوف في كردستان. كان في الواقع المقر الرسمي ويتمتع بصورة خاصة بستر طبيعي ممتاز لوقوعه ملتصقا بكتلة عظيمة من الصخور وفي شعب ضيق بين غابة من شجر الحور. وتقوم بمواجهته جبّانة مدرجة القبور. كنت ملما بهذه المواضع لاني لبثت هناك فترة في اجازة استحمام وراحة وقد قامت الطائرات اثناء وجودي بغارة على الطريق عند منعطف (شينوك) فاسقطت امام عيني ثلاثة من قنابل (الناپالم) في الاراضي الايرانية. واحدة منها اصابت قرية (تمرچيان) في عتمة غسق ذلك المساء عندما كانت الانوار الوهاجة ترتفع من الحرائق صعدت أم فتية سطح دارها حاملة طفلها بمهده الارجوحي الهزاز وراحت تناغيه وتهدهده حتى نام على اغاني قصة. كانت آخر اشعة للشمس الغاربة تسقط عليها فتكسوها في غمار النور المنعكس بهالة ذهبية. بعد ان استكن الطفل ونام في مهده نزلت وانصرفت الى اعمالها المنزلية وكنت وانا مضطجع بين العوسج والدغل انتظر ظهور اول النجوم من فوق هذا المهد اللدن الشبيه بفلك (نوح) الغابر وهو بارز من جبال كردستان[٦].

تمت المقابلة بين (البارزاني) وبين الوفد العراقي المفاوض على ساحة أرض منبسطة امام البيت فرشت بالسجاد المخملي المطرز بالازهار ولم يكن ثم من اثاث غير منقل للنار. واعلن رئيس وفد المصالحة من فوره ان القوات الحكومية قد تلقت الأوامر بايقاف كل نشاط

٦ـ اشارة الى فلك نوح بعد شقه عباب ماء الطوفان واستقراره على جبال كردستان جبل (جودي) او جبال (آرارات) حسب ماتردد في الكتب السماوية والتاريخية وبذلك تعتبر كردستان مهد البشرية الثانية. (المترجم)

حربي وبألا تفتح النار الا في حالة الدفاع المشروع عن النفس. كما اكد ايضا وقف الغارات الجوية. ثم قدم رسالة شخصية من رئيس الوزراء (البزاز) تتضمن مشروعا مقترحا للسلم. وجده (البارزاني) ملائما للبدء في المفاوضات عن طريق وفد مخول رسميا بالصلاحيات اللازمة. وبعد هذا وجّه امراً لكل قواته في الجبهة بايقاف الاعمال الحربية. وعندما اخذ الوفد الحكومي سمته الى (رواندوز) ليصلها عصرا. كان (البزاز) في بغداد يندد علنا في مؤتمر صحافي باولئك العسكريين المتطرفين المغالين «الذين ادعوا» سحق العصيان الى آخر متمرد هذا التلميح كان يهدف الى حفظ ماء الوجه والايحاء بان الحكومة شرعت في المحادثات التمهيدية وانها مازالت منتصرة. والى انذار الكرد في الوقت نفسه بوجود معارضة لاي مفاوضات معهم داخل صفوف الجيش. وفي السادس عشر من حزيران بدأ الضباط والجنود العراقيين يلوحون بقطع القماش الابيض ويعبرون الخطوط من عدة نقاط لمعانقة البيشمركه وضمهم الى صدورهم منادينهم بـ (اخواننا المسلمين) واخذت الحياة تنبعث شيئا فشيئا في كردستان المثخنة بالجراح. وفي الثامن عشر منه وصل وفد عراقي مؤلف من اربع شخصيات بينهم اثنان من الوزراء السابقين يترأسهم الجنرال (ابراهيم الراوي)[٧] فاستقبلهم (البارزاني) كالعادة في (حاج عمران) يحيط به هذه المرة اعضاء المكتب التنفيذي. فدرسوا النقاط الاثنتي عشر من الاتفاق الذي اقترحته الحكومة ووافقوا على خطوطه الرئيسية مع ابداء بعض التحفظات على النقاط الادق فيه. وما ان قام الجنرال (ابراهيم الراوي) بابلاغ رئيس الوزراء (البزاز) بالرد الايجابي، حتى طلب من (ملا مصطفى) ارسال ممثليه الى بغداد لاجل وضع الصيغة النهائية للاتفاق. الا ان الجنرال (عارف) كان متأثرا بالمعارضة العسكرية، ويخطط لمناورة سيئة النقيبة فقد استقبل بصورة رسمية (جلال الطالباني) بوصفه زعيما للحزب الديمقراطي الكردستاني والناطق الرسمي باسم الكرد وفي اثناء المقابلة التي وصفت بانها ودية صرح قائلا ان الدستور العراقي المؤقت كفل الحقوق القومية للشعب الكردي. وان هذا الاقرار سيتم تثبيته بالدستور الدائم المقبل. فبدا الامر وكأن رئيس الدولة يرغب في المفاوضة مع (الجاش) في حين كان رئيس وزرائه يمضي قدما في مفاوضة البيشمركه. وعندما كان راديو بغداد يذيع هذا النبأ الغريب المحّير للعقول انتابت (ملا مصطفى) نوبة غضب عنيف ورفض الاستمرار في المفاوضات التمهيدية وكتب يقول. جلال الطالباني هو من زمرة الخونة. واني لارفض اي حوار يكون فيه طرفا باي شكل من الاشكال في مفاوضات السلم. لم يكن الكرد يجهلون بنوع خاص ان (جلال الطالباني) ساهم مساهمة مباشرة في معركة (رواندوز) الى جانب قوات الحكومة ولديهم دليلهم ببرقية يحتفظون بها مؤرخة في الثاني

٧ـ اللواء ابراهيم الراوي قائد الفرقة الثالثة في الديوانية ايام حركة ايار ١٩٤١، هرب الى المانيا النازية بعد فشل رشيد عالي الكيلاني ودخول الجيش البريطاني بغداد. عاد الى العراق بعد ختام الحرب ببضع سنين واعيد الى الخدمة في العهد الملكي وكان اخر ماتقلد من منصب وزير العراق المفوض في (كابل). (المترجم)

عشر من أيار ورقمها (١٥٤٨) صادرة من رئاسة اركان الفرقة الثانية أي في اليوم الذي عقد لهم لواء النصر في (هندرين). وبادر (البزاز) الى بذل اقصى الجهود لتزويد (ملا مصطفى) بكل الضمانات والتطمينات الضرورية. وفي الحادي والعشرين من حزيران غادر كردستان الوفد الكردي برئاسة (حبيب) السكرتير العام للمكتب التنفيذي قاصدا بغداد. فاستقبله رئيس الوزراء في ٢٣ حزيران. ثم استقبله الجنرال (عارف) رئيس الدولة وفي اليوم التالي أعلن راديو بغداد بان (ملا مصطفى البارزاني) قبل عروض الحكومة التي تتضمن الاعتراف بالقومية الكردية وباستعمال اللغة الكردية في الدوائر الرسمية وكذلك بادارة لامركزية للمنطقة الكردية. وفي يوم الثلاثاء الموافق للثامن والعشرين من حزيران خرجت صحف العاصمة بوجه آخر عجيب فكتبت تقول ان التوقيع على اتفاق السلام سيتم في القريب العاجل وسيكون اعلانه بشاشة التلفزيون من قبل (البزاز وحبيب) معاً، أما الواقع فكان غيرذلك. ففي التاسع والعشرين من حزيران ظهر رئيس الوزراء وحده على الشاشة الصغيرة ليقدم البنود الاثني عشر من الاتفاق المقترح لتسوية الخلاف وصرح قائلا:

ـ ان الحكومة من حيث الأساس مستعدة للاعتراف بحقوق الكرد القومية. الّا انها تطلب منهم تسليم اسلحتهم. وليكن مفهوما بانهم سيفيدون جميعا من العفو العام.

كان المشروع يتضمن فضلا عن هذا وعداً باجراء انتخابات عامة تشريعية في الأجل المضروب الذي نص عليه الدستور. وقبول الطلاب الكرد في جامعة بغداد. وادارة خاصة لكردستان تناط باهاليها وفسح المجال لتقلد الكرد وظائف الدولة بنسبة عدد الكرد الى السكان. وحرية النشر وتشكيل الاحزاب. وأخيراً أكد وجوب عودة الجنود الكرد الى وحداتهم في الجيش العراقي خلال فترة امدها شهران. ونص على استحداث وزارة خاصة لادارة شؤون الشمال. والبدء بصرف التعويضات لمشوهي الحرب ويتاماها وارامله والمتضررين منها باسرع وقت ممكن. وظل راديو بغداد يعيد اذاعة برقية ارسلها (ملا مصطفى البارزاني) مستفيدا من قوله فيها ان مقترحات الحكومة تعكس رغبتها في احلال الوئام والسلام بين الشعبين العربي والكردي وأنها تحظى بموافقته. الا ان وقف اطلاق النار لم يصدر به قرار مطلقا خلافا للتأكيدات الرسمية والتصريحات العلنية. ان (ملا مصطفى البارزاني) الذي جعلته تجارب السنين المنصرمة ومناورة الرئيس (عارف) الاخيرة الخادعة، كثير التوجس شديد الحذر. ظل مصرا بعناد على رأيه بان موضوع وقف اطلاق النار لم يكن قد وضع على بساط البحث في كل المفاوضات. ولهذا لم يكن شرطا اساسيا فيها وقد ايدت الاحداث فورا ان حذره كان في محله وان لمخاوفه مايبررها. ففي اليوم التالي لاذاعة بيان (البزاز) أي في الثلاثين من حزيران استولت عناصر من الجيش على مطار الموصل. والقت طائراته قنابلها لاعلى البيشمرگه هذه المرة بل على القصر الجمهوري في بغداد. وفي الوقت نفسه استولت زمرة من المتآمرين على محطة الاذاعة واعلنوا تشكيل مجلس قيادة الثورة. برآسة (عارف عبد الرزاق) رئيس الوزراء السابق

الذي سبق له وهو رئيس وزراء أن قام بمحاولته الانقلابية الفاشلة الاولى ضد المشير (عارف). الا ان حظه مع هذا الاخ لم يكن بافضل من حظه مع الاخ الاول. اذ سرعان ماوفق الرئيس (عارف) الى التغلب على المتآمرين الذين كانوا يضمون الى صفهم عددا كبيرا من الضباط. اتضح ان هذه المؤامرة التي قام بها فريق من «غلاة الناصريين» استغلت سخط ضباط الجيش الذين كانوا يعارضون في مباشرة اية مفاوضات مع الكرد. فقد اعتبروا ان العار لحق بهم لاستسلام الحكومة بهذا الشكل. كان نجاح هذا الانقلاب يعني بصورة خاصة القضاء على مفاوضات الصلح التمهيدية واستئناف القتال. وبرهنت هذه الاحداث على مدى بعد نظر الشعب الكردي ازاء حالة عدم الاستقرار المستمرة في الوضع السياسي فبقي حريصاً على قوات البيشمرگه في داره. وأكد (ملا مصطفى البارزاني) نيته للمرة الثانية في الامتناع عن اعطاء اي تعهد لايمنحه حرية الابقاء على فصائله حتى تسود العراق الاوضاع الطبيعية مرة اخرى ويقصد بهذا مادامت الحكومة بعيدة عن الخط الديمقراطي وغير جادة في الوفاء بتعهداتها فستبقى قواته ولن يسرحها. ولم يكن هذا يمنعه في عين الوقت من التصريح برغبته في الابقاء على وضع المهادنة ومتابعة الحوار. ذلك لانه في حالة ما لو كان برنامج السلام الذي اعده (البزاز) موضع ارتياح الكرد ورضاهم بخصوص النقطة الحساسة الجوهرية اعني الاعتراف بالقومية. الا انه في نظر (ملا مصطفى البارزاني) بقي غامضا جدا ان لم يكن ساكتا عن مسائل اخرى جوهرية كشروط ادارة الحكم الذاتي في كردستان. وتعيين نائب كردي لرئيس الجمهورية وتشكيل فرقة كردية خالصة في الجيش العراقي يكون مقرها كردستان وتشكيل قوات شرطة كردية خاصة وتأليف مجلس نواب لكردستان مزود بصلاحيات تشريعية وتنفيذية وتخصيص جزء من العوائد النفطية لاعمار وتطوير كردستان واصدار العفو العام لا عن الكرد وحدهم بل على جميع المعتقلين السياسيين في العراق. وفي تلك الاثناء كان (البارزاني) الذي يتبع سياسة لايحتمل فيها الاَّ الخطأ الأقل قد وضع مايشبه صماما مخفضا للصوت لمطاليب معينة من مطاليبه كيلا يعّرض للخطر توازن حكومة (البزاز) الحرجة الاقل مناعة من حكومة أي فريق عسكري متجانس. ومهما يكن من امر فقد كانت واقعا هاما سمح للشعب الكردي المرهق بالتقاط انفاسه وتجديد نشاطه. ومما لامراء فيه ان البارزاني كان يفضل لانجاح قضية شعبه، ادراكا وتفهما افضل ان لم يكن فلكسب تأييد اوروبا. فبعد كثير من النكث بالوعود واللامبالاة ادرك بالاخير ان المسألة الكردية كانت مفتاح التوازن في الشرق الاوسط مثل ماكانت عضوا في جسم العلاقات العراقية ـ المصرية. ولذلك وافق (ناصر) على الهدنة وأذن بها وساهم مساهمة فعالة في نقلها الى حيز الواقع.

لكن، لما كان (البارزاني) قد كثّر من عدد الاقفال منذ مطلع هذا القرن، فقد اعطى انطباعا بانه لم يعد يدري كيف يستعمل حزمة مفاتيحه وانه لذلك لجأ الى المساومة على الطريقة التي اشتهر بها بائعو السجاد الجوالين بدلا من المبادرة الى اصلاح الموقف برمته دفعة واحدة. وهكذا ففي دبلوماسية السوق هذه قدروا انه سيقع حتما ضحية خداع

الاختصاصيين المحليين الذين لاشعور لديهم بالقيم الخلقية ولااعتبار لشرف الكلمة. كان (ملا مصطفى البارزاني) يعرف ذلك جيداً عندما يكون في جباله وحيداً ليس له الا الاعتماد على نفسه وعندما يتحمل اهوال الشهادة التي تقاتل باندفاع اليأس، وعندما يرى كل مباديء كفاحه المستمدة في الواقع من معين انساني عندما رآها كلها موضع استصغار واهمال أبإمكانه أن يكون متنطعا متحرزا في الخيار ان كان هذا سيؤتي ثماراً طيبة؟ في النهاية قرر (ملا مصطفى) في الرابع من تموز اصدار اوامره بوقف اطلاق النار على اثر محادثات مباشرة تمت بالقرب من (رواندوز) وشارك فيها شخصيا. على انه ابلغ (عصمت شريف وانلي) موفده الى اوروبا ان يقول اننا مازلنا في حالة حرب.

ومرة اخرى سارعت عوامل جديدة الى زرع بذور الشك وعدم الثقة. ففي اواخر تموز سافر (البزاز) الى تركيا حيث خلفت المقاومة الكردية المظفرة انطباعا عميقا في حكومة (انقرة) وهناك صرح قائلا:

ـ لايخفى ان الجهود المبذولة قد ادت الى نجاح العراق في توطيد اركان وحدته الوطنية.

ثم رحل الى موسكو واجتمع بـ(كوسيگن) لمفاوضته على مساعدة اقتصادية وفنية وربما عسكرية فنال ما ابتغى منه بعد اعطائه تأكيدات عن استتاب السلم في كردستان. واشيع في عين الوقت انه اجتمع في (باكو ـ بالقفقاس) بـ (ملا مصطفى البارزاني) مزودين ببركات الاتحاد السوفياتي. وانتهز غياب رئيس الوزراء لفيف من كبار ضباط الجيش بينهم الجنرالات (ناجي طالب، رجب عبد المجيد السفير العراقي في لندن، شاكر محمود شكري وزير الدفاع، طاهر يحيى، احمد حسن البكر رئيس الوزراء السابق، عبد العزيز العقيلي عدو الكرد الاول) للقيام بضغط تآمري على رئيس الدولة. واتهموا (عبد الرحمن البزاز) زئيس الوزراء المدني الوحيد منذ ثورة العام ١٩٥٨ باتخاذه موقف التقرب والتودد من الدول العربية ذات النهج الرجعي وباتباعه سياسة اقتصادية ليبرالية ترمي الى الاخذ بيد الرأسماليين وتشجيعهم وتبنيه فضلا عن هذا سياسة خارجية محافظة. واخيرا عقده اتفاقا مع الكرد. وأرغم (البزاز) على الاستقالة عند عودته من (موسكو). وفي السادس من آب كلف (عارف) اللواء ناجي طالب وهو من الناصريين المعروفين بتأليف الحكومة. فأثبت في منهاجه الوزاري الذي رسم على خطوط قومية عسكرية واجراءات اشتراكية جزئية، هذه العبارة «العمل على توطيد الامن والاستقرار في المنطقة الشمالية واعمارها» كما نص على «تقوية الجيش». وضم (ناجي طالب) الى وزارته ثلاثة من الكرد هم (الدكتور عبد الله النقشبندي) وزيراً للمالية. و(مصلح النقشبندي) وزيراً للعدل و (احمد كريم قادر) وزيراً لاعمار الشمال. واعلن (ملا مصطفى) متشدداً بانه ينكر على هؤلاء الثلاثة حق تمثيل الكرد. وقدمت اذاعة «صوت كردستان الحر» النقشبنديين بصورة خاصة بوصفهما سليلي أسرة دينية رجعية تفتقر الى الشعور بالاخلاص للعراقيين وانهما اقرب الى (الجاش) واوضحت قائلة ان الكرد يبدون اعظم التحفظ ازاء الحكومة الجديدة. وفي عين الوقت نشرت «الجامعة العربية» خارطة جغرافية للوطن العربي، أدخلت فيها بصورة تلفت النظر اقليم كردستان العراق مثلما ادخلت اسرائيل. وهكذا لم يحترم الاتفاق الذي سعت

الحكومة العراقية الى انجازه واظهر الاثوريون بعض السخط على تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الفاتيكان وبغداد. بينما رفض (يوثانت) السكرتير العام للامم المتحدة استقبال (عصمت شريف وانلي) رسول (ملا مصطفى البارزاني).

ظلّ الصمت يسود الجبال الكردية ثلاثة أشهر فحسب. والوقت صيف. ثم في الخامس والعشرين من ايلول رددت الوديان اصداء دوي الرصاص. انهم البيشمرگه يصدون هجوما لجاش (الطالباني) بمساندة عناصر من اللواء الخامس العراقي في جبهة قره داغ. ثم تعددت الاصطدامات وقام (ملا مصطفى البارزاني) مجددا بتعبئة قواته للحيلولة دون تسرب المرتزقة الذين جندهم (جلال الطالباني) رسميا على ان تكون خدماتهم رهنا باعمار الشمال. فدب الخوف في حكام بغداد واوفدوا (شاكر محمود شكري) وزير دفاعهم لمقابلة (ملا مصطفى البارزاني) الذي كانت الاخبار تردد أنه مريض يتهيأ لاجراء عملية في الخارج. وتمت المقابلة في جو صريح، وقدم الزعيم الكردي مسدسه لضيفه هدية رمزية وتسلم منه مقابل ذلك نسخة من القرآن. الا ان البيشمرگه بعد مرور يومين لا اكثر قاموا في منطقة (پنجوين) بتشتيت شمل العربان الذين منعوا الفلاحين الكرد من العودة الى اراضيهم واعلنت اذاعة «صوت كردستان الحر» مواصلة النضال حتى الوصول الى الحكم الذاتي. فأجابت بغداد منذرةً إنْ لم يسلم البيشمرگه سلاحهم قبل ٢٩ تشرين الاول، فان قانون العفو لن يشملهم بعده فاجاب (ملا مصطفى) بشعار «الحكم الذاتي أو الحرب». فاهتبل (العقيلي) فرصته للمناداة بفكرة تصفية القضية الكردية بالقوة. وهكذا ففي الثامن والعشرين من تشرين الاول وهو آخر يوم للانذار الحكومي لم يجد الجنرال (عارف) بدا من السفر الى (رواندوز) لمقابلة (ملا مصطفى البارزاني) بشخصه وقدم له سيارة امريكية فخمة على سبيل الهدية. تم اللقاء في معسكر المفرق القريب من (ديانا) في الوقت الذي عمد البيشمرگه الى احتلال المرتفعات المجاورة يرقبون محل الاجتماع بأعين يقظة. كانت اشبه بمفاوضة بين رئيسيّ دولتين! وللمرة الاولى يقر العراق اقرارا ضمنيا بوجود حكومة في جنوب بلاد كردستان. وعند عودة (عارف) الى العاصمة أسرع يؤكد ان (ملا مصطفى البارزاني) ليس «انفصالياً» وانه وعد بتطبيق بنود اتفاق وقف اطلاق النار. وكان ذلك مدعاة استياء عظيم لرئيس وزرائه (ناجي طالب). الا ان العراق لم يكن مستعدا مالياً وعسكرياً لخرق الهدنة وبداية عام حرب جديدة. فضلا عن قدوم فصل الشتاء الى جبال كردستان. لم يكن بمقدور نظام الحكم المخاطرة باندحار آخر. وكان (ملا مصطفى) خير من يدرك ذلك!.

فيما بين الخامس عشر والحادي والعشرون من شهر تشرين الثاني وفي الوقت الذي كان الثلج يغطي اشاعات المتشائمين ويعرض أملاً بفترة مؤقتة من الراحة، انعقد مؤتمر الحزب الديمقراطي الكردستاني ووجه مذكرة الى حكومة بغداد وصف فيها الاتفاق العراقي ـ الكردي بـ(الوثيقة الميتة) وذكر انه احترم من جهته البنود التي تخصه من الاتفاق وهي اطلاق سراح الاسرى، فتح الطرق، ايقاف عمل اذاعة صوت كردستان الحر، اعادة الاسلحة الثقيلة التي غنمت من الجيش، واتهم الجنرال (عارف) بالنكث بالوعود

المقطوعة وهي «اعمار المنطقة الشمالية، تطبيق اللامركزية، جعل اللغة الكردية لغة دراسة في جامعة بغداد، حرية الصحافة والتعبير عن الرأي. اختيار وزراء من الكرد المخلصين، اطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، حل تشكيلات (الجاش)، الاعتراف الرسمي بالحزب الديمقراطي الكردستاني، ضم قضاء دهوك الى اقليم كردستان. وندد الحزب في مذكرته بتأهب الحكومة لشن حرب جديدة. وفي غضون ذلك قام (ملا مصطفى) في ليلة عيد الميلاد بمحاولة اخيرة منه لرأب الصدع مستفيداً من المعارضة التي اخذت تستقطب حول الجنرال (عارف) ورئيس وزرائه (ناجي طالب) بتقديم اقتراح بتأليف لجنة مختلطة يناط بها وضع الاسس لسلم وطيد الاركان. ولفظ العام آخر انفاسه باعلان رحلة وشيكة لرئيس الدولة العراقي الى (طهران) فكانت اشارة واضحة بان الكرد لن يُمكّنوا من التمتع بفترة راحة.

مرت ثلاثة اشهر أُخر ونسي العالم (كردستان) مرة اخرى. فقد انكفأ الكرد متوارين في مجاهل جبالهم التي جعلها الشتاء القاسي اشد امتناعاً وحصانة مما هي. كردستان ينعم بسلام البرد والصقيع!! يقول مثلنا الفرنسي «لكي يعيش المرء سعيدا، عليه ان يتوارى عن الانظار» على ان هناك مثلا آخر يقول «ان الزمن صديق صاحبه» وكيفما كان فقد ربح (ملا مصطفى البارزاني) سنة كاملة.

في دورة الجنرال (عارف) الربيعية وقت بدء هجرة الحيوانات وصل به المطاف (انقرة) حيث بدأ الترك يدركون ان استخدام القوة ضد القومية الكردية لم يعد وسيلة مجدية من الآن فصاعدا. ومن (أنقرة) سافر (عارف) الى (طهران) وعلى هامش محادثات الطرفين حول تخطيط الحدود جعله الايرانيون يشير اليهم (ولاشك) عن حجم المساحة التي يسيطر عليها (البارزاني) من الاراضي. وامام الرأي العام العالمي قاطبة (وان كانت العواصم الكبرى تتظاهر دوما بتجاهل الامر). بلغ (عارف) جادة الصواب وماعاد يغازل فكرة امكان القضاء على الكرد بقوة السلاح. وادرك ان اي حل مجد لايمكن ان يتحقق بغير الوسائل السياسية. الا ان القادة العسكريين هم حكام العراق ابدا.

الفصل الثامن

«آخر السادة العظام»

(يك هيه به صدى. صد هيه نه ب يكي)
رجل واحد بمائةٍ. ومائة قد لايبلغون واحداً
(مثل كردي)

في الصيف الاخير. كان الهدوء يسود كردستان. والمنجل يأتي على حصاد ماتبقى من الرقع التي سلمت من نار الناپالم. وفي اثناء عملية درس القمح ذات الصبغة الجماعية في القرى بتلك الالواح الخشبية السميكة التي ترصّع بكتل الصوان والانصال الفولاذية التي يسحبها جاموس حليم الطبع صابر. كان ذوي اللحى البيض من «العقلاء» المتشككين في المستقبل يذكرون الشباب في ايام العيد بالدرس الذي تعلموه من تجاربهم «ئه و ري ته به ري خوي دي از هاتم = الطريق الذي ستسلكه انت هو الطريق الذي سلكناه قبلك». هذا الطريق لملحمة الكرد والآثوريين المشتركة انما رسم خلال عشرات من القرون في سلاسل تلك الجبال الشم، حكم القدر عليها بخبث قاس ان تقف الان عند حزمة خشب مرحلية على تلك الطريق بشخص رجل جاء من صميم تلك الجبال ليتكفل بحراسة ذلك الطريق حراسة فيها جلال وعظمة. لقّبه الاب (بيدار) بـ«الزعيم العظيم» وعدّه مبعوث العناية الالهية وهنا في بلده كانوا يبّرزونه بكل تجلة كحلية تزين اسطورة اخذت تطوف في ارجاء العالم. وهناك... كانوا يلقبونه «بقاطع الطريق العجوز» هذا الرجل التي حلت فيه النعمة الالهية التي يسمونها (البركة)، جالسته ساعات طوالا مشمولا بجو صداقته الحميمة اثناء معركة (رواندوز) وشرفني بثقته دونما تحفظ الى الحد الذي كان يشرح بحضوري خططه لتلك المعركة وبالنسبة اليّ ماكانت المخابيء التي يختارها لمقره من قبيل الاسرار.

كان (ملا مصطفى البارزاني) وهو اسمه الكامل. لاينام الا لماما ونشاطه وحيويته الفائقان لايفتران ليلا أو نهارا. يستقبل دون تريث الكوادر العسكرية والحزبية و(حبيبا) واعضاء المكتب التنفيذي وابسط رجال البيشمرگه مثلما يستقبل الوجهاء وعلية القوم سواء بسواء. انه يريد ان يلم بكل شيء وكل حدث فينتظر ليلياً مقدم أبنه (ادريس) الذي اعتاد تقديم تقرير عن نشاطه وتلقي الأوامر منه. وكل المحادثات التي يجريها والمؤتمرات التي يعقدها تتسم بالبساطة والبعد عن التكلف. فمجلسهم الدائم هو الارض العارية او المفروشة بالابسطة واقداح الشاي وهو منظر الترف الوحيد. فإذا ماطرأ تغيير على هذا المنظر (الديكور) فان قذائف المدفع وقنابل الطائرة تؤكد للمختلف الى المجلس دوام العزف

الاوركستري،ويجلس (ملا مصطفى البارزاني) الارض وساقاه مصلبتان تحته وجذعه منصوب بغاية من الاستقامة يصغي ويستفهم ويستغرق في التفكير بملامح رصينة جامدة لاتختلج فيها عضلة وهو يسحب من سيكاراته المتتابعة انفاسا قصيرة. ثم يدلي برأيه ويندر به ان تراه يوجه انتقاداً. ولايرفع قطّ نبرات صوته ولايعطي مبررا لرفعه.

بعد وصولي كردستان بوقت وجيز. أنبئت بان (القائد) يرغب في رؤيتي، وكانت أمنيتي الكبرى. أمضيت ليلة تحت مكتل صخري خلف الجبهة محصورا بين النهر وبين الطريق. واحتميت بسقف خربته الغارات الجوية حيث كان الرجال والنساء والاطفال ينامون معاً مشتملين بسائر ثيابهم. ووجدت لنفسي رُكنا صغيراً في عنبر النوم هذا وليد الصدف والمشبع بروائح نفّاذة. وفي الساعة الخامسة فجرا خرجت منه وصرت أراقب القرويين وهم يقومون باعمالهم اليومية.. وارسلت الينا العناية الالهية سحابة طخياء غطت ذرى الجبال، صباح هادىء ساكن اغراني بالكتابة فجلست فوق تلعة معشبة تشبه المقعد واتخذت صخرة صوانية بمثابة منضدة. وعندما حان وقت الفطور نزلت الى الوادي واطبقت على اشجار الصفصاف وحللت ضيفا على فلاح مسن اسمه (شاهين) وهو (الباز الملكي) عندنا وكانت زوجه وابنته الحسناء منهمكين في تحضير الروب والجبن والسمن وزبد الغنم الناصع والخبز والشاي، غير ناسيتين البصل الاخضر الذي لاغنى عنه. وكان اولاد شاهين الصغار يرعون الاغنام وقت تهيئة الطعام. وكان ابنه (نرجس) يقاتل في جبل (زوزك). ان شاهين يمني نفسه بالسلم لابأي ثمن كان اوبأية شروط. وصارحني بأن الغلة يحيق بها خطر عظيم بسبب القصف الجوي وانه يتعذر اهمال انجاز الاعمال التي لاغنى عن القيام بها. وكان يتوقع قليلا من المطر... زقات العصافير . انها تنقل الماء من البحر بمناقيرها وتتركه يهطل قطرةً قطرةً على الارض! وبانقشاع الغيم بعد الظهر بقليل انطلقت المدافع وصكت آذاننا بارعادها وفيما نحن نصعد الجبل ثانية انقضت طائرة (ميگ) نحو الوادي مطلقة نار رشاشاتها فيما وراء القرية ولما لم تعاود الكرة استنتج (شاهين) بان شيئا ما في عرض الطريق استرعى انتباهها. وايد لنا البيشمرگه الذي كان قد جاء ليأخذني الى (ملا مصطفى البارزاني) مع مرافقي (سامي) انه شاهد حصانا ضالا. عقبنا الطريق مسافة ونحن نسير بمحاذاة الصخور ونشخص بأعيننا الى السماء. واعترضتنا جثة حصان ارتفعت ارجله في الهواء وقد انشقت خاصرته فبانت احشاؤه. وسرنا في طريق طويل مكشوف حفره الرصاص فقال البيشمرگه:

ـ مرت الطائرات دون أن تدري أنها قريبة جدا من مقر البارزاني.

وفي احد فروع طريق جانبي صغير، انتصب جزع شجرة مسنة نصف مقلوعة منتفشة العروق ذاوية الاماليد ذابلة الاوراق. وفوق جدار بني حولها بحجارة غير مهندمة. وكان ثم حصى مستديرة ومجموعة من الطاسات الفارغة. هذه الشجرة مقدسة يتقمصها جني. والمارة يقدمون اليها نذورهم وتكثر هذه التقدمات عندما يحوم شبح الموت في تلك الانحاء. وأفضى بنا صعود سفح حاد الى مفرق طرق اربع لمرج يتجاوب في انحائه صفير الجَداجِد. وهنا اطلق مرافقنا البيشمرگه صفيراً.. وبلمح البصر الذي اشبه السحر برزت في الافق

عمائم منقوطة بالأحمر والأبيض من رؤوس الصخور التي كانت تحيط بالمرج كالنطاق. وكان عن يسارنا ثمة جدول صغير يتدفق من شق ضيق وغيضة من اشجار البلوط الدائمة الخضرة تشرف على الشق الصخري. كل خطوة نخطوها كان يلوح من احشاء العساليج (سنطور) وحشي يصيب المرء بالدوار. وكان بعض البيشمركه يُعدون الشاي فوق النار الموقدة وتحت ظلال الشجر وقد احسنوا اخفاء ألسنة النار وستروها عن الجو. وكان ثمة اربعة أبسطة مفروشة على الارض بهيئة اضلاع مربع وابتدر (سامي) رئيس الزمرة الصغيرة بالحديث وقال هذا بقلة اكتراث:

ـ لقد اقبلت الميگ قبل موعدها المألوف بكثير...

كنا نرقب الطريق مراقبة دقيقة فشاهدناها. طائرة منفردة واحدة تحلق بمحاذاة كتف قمة الجبل مثل عصفور هارب من عاصفة. وميزت صوتاً مألوفاً هو دوي مدفع (گلاله) المضاد للجو. وفجأة ظهرت علائم الاستعداد على البيشمركه. وبدا واحداً متنكباً بندقيته يتوقل الخانق على مهل. وتلاه رجل قصير ممتلىء مربوع الطول يداه وراء ظهره وانظاره ضائعة في حلم كل الصور الفوتوغرافية التي تختزنها ذاكرتي كانت تؤكد لي انه (ملا مصطفى البارزاني).

كان متبوعاً برجل في مقتبل العمر صغير القد تبتلع وجهه عوينات واسعة مستديرة. وهمس (سامي) في أذني يقول انه (عقراوي) الممثل الكردي السابق في القاهرة. أخرجه (عبد الناصر) مؤخراً من مصر بطلب من الحكومة العراقية. وفي آخر الركب أقبل بيشمركه آخر ممسكا بعنان جواد ممتاز حسن السمت والاسراج، أربد اللون.

توقف (ملا مصطفى) هنيهة ليلتقط انفاسه. وصرف تابعه مع الحصان بايماءة منه ثم صرف الحرس الخاص الذي كان يتقدمه واكمل صعوده مع (عقراوي) فحسب. كان يرتدي معطفاً غير مزرر من الگبردين الخاكي الأوروبي التفصيل فوق الثياب التقليدية. ولاحظتُ ان سرواله واسع فضفاض على شكل السروال الخارجي الذي يرتديه صيادو السمك عندنا. وكان يتمنطق بصف رصاص، ويبرز من حزامه العريض القماشي الملون بالازرق الخنجر التقليدي ذو القبضة القرنية والغمد المموه بالذهب[1].

وعمامة بارزانية النِجار منقوطة بالاحمر والابيض مثل سداسيات خلايا النحل وهي كما قدرت كفية من القماش تلف الرأس دون مراعاة لاسلوب معين في لفها على مابدا لي. وكان أسود الشعر غليظ الحاجبين، أسود العينين ذا نظرة نفّاذة عميقة. كث الشارب قصيره لاتجد فيه شعرة واحدة بيضاء، اشمّ الانف معقوفة عريض الذقن تمور على شفتيه تباشير ابتسامة تنم عن طيبة قلب وتشيع الوداعة في التقاطيع الفظة للوجه البرونزي. لم اتمكن من تحويل نظري عن هذا الرأس الذي أرصدت الحكومة جائزة قدرها (١٥) مليون فرنك قديم لمن يأتيها به. أمامي يقف الان آخر سيد حرب عظيم في عصرنا هذا، انسلخ عن

١ـ يتوهم كثير من الصحفيين الاجانب والزائرين بغمد الخنجر الذي يحمله (ملا مصطفى) فيحسبونه من الذهب في حين انه نحاس عادي لماع ليس الا. (المترجم)

حقبة تاريخية نبيلة ليجد نفسه تائها حائرا في عصرنا هذا. وطني صلب وجندي لايشق له غبار أدخل في رومانتية ثوار كل الثورات ذلك الوقار والهيبة المطمئنين للزعيم الشرعي. انه في هذا الشرق يجسم كل طارف وتليد من الحكايات. وكل مايغريك بالاسطورة وقسوة التاريخ.

توقف قبالتي يلتقط انفاسه، وانحنى (سامي) ليقدمني له. فمد (ملا مصطفى) يدا قوية وصافحني وركز ناظرين لايريمان بناظريّ ورحب بي معتذرا عن تأخره ومعلقا بقوله «الحقيقة اني رجل عجوز» قالها وهو يبتسم ابتسامة عريضة كشف عن اسنان ذهبية. ثم خلع حذاءه الأسود وجلس متربعا فوق بساط وصلب ساقيه تحته وكان جوربه الذي يكسو ساقيه من غزل الصوف الأبيض المنسوج باليد طريقة العقدة المقلوبة وافسح لي مكانا بالقرب منه وجلس كلّ من (سامي) و(عقراوي) قبالتنا وكانت اللغات التي يتكلمها لاتعدو الكردية والعربية والروسية[٢] ولهذا اعتمدت في ترجمة اقواله عن الانكليزية.

في المقابلة الاولى تنقلنا في اشتات من الاحاديث. ورجاني أن التزم الحذر الشديد لسلامتي بالدرجة الاولى من اجل المحافظة على شخصي «كما عبّر عنه» وبالدرجة الثانية بدافع الحرص والانانية.!

فهذه المرة الاولى التي يجئنا صحفي اجنبي ونحن نخوض غمار معركة. لذلك نريده ان يعود سالما معافى ليقص ويشهد على مارأى.كان يلف سيكارات التبغ ويدخنها بعد ان يركزها في فم مبسم طويل رفيع من خشب الكرز البري. ويستخدم لاشعالها مقدحة قديمة صدئة يوري نارها بالزند وانتقلت به الى ماضيه فراح يستذكر معاركه الاولى في حدود العام ١٩٣٠ بعد ان تخلت انكلترا عن انتدابها على العراق دون ان تحقق الوعود التي قطعتها للكرد والآثوريين وكان «يفلفل» ذكرياته بعبارات لاذعة دقيقة المعاني، قال:

ـ العراق انما هو فكرة بريطانية سيئة بل خطأ سياسي كبير، سوى انه كان صفقة مالية رابحة بسبب وجود البترول فيه، وهو مصدر شقائنا. اني ماحقدت مطلقا على الانكليز. وأفضل أن أبقى تحت وصايتهم على ان اكون تحت طائلة حكم بغداد. في عهد جمهورية (مهاباد) حيك الكثير من المكائد والدسائس علينا وضاع وقتنا بكثرة الكلام والمماحكات فعجّل ذلك بخرابنا. لما كان الخطر بعيدا عنا اخطأ السياسيون وتعثروا. وعندما لجأت الى روسيا لم أكن مختارا وانا لست شيوعيا لكنهم مع ذلك يلقبوني بالملّا الاحمر! لانهم يخافون منيّ. وانك تعلم ماتلا ذلك من اوهام وآمال. في العام ١٩٦١ ارغمت على رفع السلاح ومواصلة الكفاح. هناك مثل عندنا يقول «اذ باشرت عملا مرة فلا تتركه واذ تركته مرة واحدة فلا تتابعه بعدها» اني لم اترك عملي قط...

وانتقل الى موضوع الخلاف والانشقاق في صفوفهم فشعرت بمبلغ الحزن والأسى الذي استولى عليه بخصوص احداث معينة لنكث بالعهد وتهرب من المعركة واجهته في هذه الفترة الاخيرة من عمره. وكان يدخن بدون انقطاع. ولفت نظري حركة ملازمة له. كان

٢ـ يجيد الفارسية ايضا. (المترجم)

يدق دقا هينا رتيبا متواصلا فوق عقد انامله إما بعود قصير واما بالمبسم الذي كان يستخدمه لتدخين سيكاراته. واقبل احد البيشمركه بالشاي واقترب بيشمركه آخر بتهيب واحترام ليحمل بندقية رئيسه القديمة ويخفيها في العوسج. في بلاد (ملا مصطفى البارزاني) التي كان لكل رصاصة قيمتها وتعتبر الطائشة منها خسارة كبيرة. يتمتع (البارزاني) بسمعة الهدّاف الممتاز. وقد لاحظت انه لم يأت بحركة عندما اقبلت طائرة واخذت تحوم فوق البقعة التي كنا فيها جالسين. وبدد خوفي هدوءه. فبعد الاعوام الطويلة من مجابهة الاخطار ومعاناة تقلباته الطارئة بدا الرجل وكأنه لايبالي بشيء. واشرت الى خنجره فجرده من غمده واخذ يقلب نصله العريض المعقوف وجس شفرته بحركة آلية وقال:

ـ كان الخنجر في كلّ حين افضل صديق للكردي. وفي قديم الزمان كان سلاح المعركة. أما الآن فهو باستثناء الحالات الخاصة رمز تقليدي ونحن الآن في حالة الضرورة.

وانتقلنا من حديث الى آخر حتى بلغنا دائرة الواقع فأخذ ملا مصطفى يكيل التهم الخطيرة لحكومة بغداد التي «لاتفكر مطلقا بمصلحة الشعب وتظن انها تستطيع المحافظة بالمال والسلاح وكثرة العتاد على نفسها ومصيرها» ثم انجرّ الحديث الى معركة (رواندوز) فاشرق وجهه وانفرجت اساريره وأضاءت بنور زائد من البريق النحاسي الذي يُقنّع وجهه وقال: ان الشك لم يساوره قط في النصر، وشدد قائلا: بأنه كان أجمل واروع مافي خمسة وثلاثين عاما من الكفاح. وماذا عن المفاوضات؟ إنها عند حكومة بغداد تستند على القوة. وفي اثناء ذلك شدد على بساطة مطاليبه وكثرة تنازلاته وقال انها مجرد الاعتراف البسيط بالحقوق الشرعية لشعب أصيل متمايز من دون انفصال عن العراق، إعتراف يكون ثابتا تاما غير قابل للمصادرة بموجب الأعراف الدولية. انه بحسب تعبيره «اتحاد اختياري في اطار مجتمع الدولة» واستخدم للجاش لفظة (الحمير) مشددا على مقاطع الكلمة وبدا عليه نوع من الاختيال عند نطقه باول لفظة فرنسية مقابلة؛ (Bourricot). وفي عرفه هناك انواع عديدة من (الجاش) مثل الجاش الزيباريين. وجاش (جلال الطالباني) الذين تخلوا عن القضية الكردية. وهناك آخرون اتحدوا على رفض كل فكرة لاجراء مفاوضات. وأكد قائلا:

ـ السلاح ليس الحل الممكن لا لنا ولا لبغداد. وعليهم ان يدركوا هذه الحقيقة ويقتنعوا بها. ليس لدينا النية ولا الوسائل بنقل الحرب الى ماوراء تخومنا. ونحن في الوقت نفسه لاننكص على الاعقاب امام هجماتهم. اننا ندافع عن حقوقنا فاذا توصلنا الى اتفاق وحل الوئام والصفاء بيننا وتركنا بندقياتنا جانباً فسنتعاون باخلاص لخير البلاد وازدهارها.

كان مسرفا غير مقتصد في كيل الثناء للمسيحيين.

ـ انهم اخواننا. وهم مواطنو كردستان لاشائبة في مواطنتهم. يحاربون كالأسود الضراغم ولايتقاعسون عن تقديم الضحايا من الشهداء.

ومع ان ظنه خائب للصمت الذي يلوذ به (الپاپا) الّا انه مازال يؤمل بان الحبر الاقدس لن ينس كردستان في صلواته من اجل السلام. ولم يكن لديه اي وهم بخصوص اساءة

استخدام المباديء الانسانية التي تواضع عليها معشر البشر واتخاذها وسيلة للخداع ولم تخطيء بصيرته حقيقة الازدواجية التي تطغى على التعامل الدبلوماسي الدولي. لذلك وجدته قد توصل الى النتيجة التي أحملها بما يلي:

- ان مشكلتنا ليست فحسب مشكلة عدالة وانسانية. انها كذلك مسألة توازن قارة مضطربة غارقة في المشاكل.

هناك بالدرجة الاساسية مصلحة العالم، مصلحة العالم الحر. واني لآمل ان لايأتي ادراك ذلك بعد فوات الاوان.

وفي حدود الساعة السادسة مساء عندما بدأت القمم تحجب الشمس الغاربة. واخذت الريح تدفع الينا بأنسام منعشة. دعاني (ملا مصطفى البارزاني) لتناول العشاء معه وصحبني الى مأواه الذي يقع قرب صدر نبع من الماء عميق الغور دفاق. وفيما وراء المنحدر اقتبل (مكة) وأقام الصلاة. خبرت انه كان يسجد بمحاذاة الطريق طالبا من الله ان يكون لخطاه مسددا ولنفسه حارسا. وكان مخبأه في شق ضيق هُيء له تحت مكتل صخري عظيم الجرم. اما مضجعه فهو يتألف من بطانية عادية رخيصة ومخدة يوسد رأسه عليها. ولاحظته يغترف براحة يده من الماء الدفاق الملتطم الجاري على رسله. وكان ثم قطعة أرض مستوية مدكوكة دكا هي بمثابة قاعة استقبال له. وقدم واحد من البيشبمركه الشاي في حين انهمك الحرس على ضفة الجدو ل في اعداد طعام العشاء متحلقين نارا عظيمة مكشوفة لم يهتموا باخفائها. ووضع (ملا مصطفى) قطعة من السكر في فمه وراح يرتشف شايه متمهلا برشفات صغيرة. ان الشقاء الذي يعانيه شعبه أسلمه الى ثورة من الغضب فانطلق لسانه يسلق حكومة بغداد باعنف مايمكن من النقد قائلاً:

- لاجل اصدار حكم عادل علينا، يجب ان يؤخذ في الحساب مجموع ماعانيناه من مصائب وويلات. لأتَحدَّ الكل هنا بدون استثناء يساهمون في خضم هذه الحرب وليس بوسع اي شعب مهما صبر، ان يتحمل حالة التعبئة العسكرية الى مالانهاية. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار حقد أولئك الذين افعمت نفوسهم قسوة وغلاظة. ان العالم ليرتعد سخطا واستنكارا كلما تذكر تلكم الفظائع الهتلرية. انظر الى كردستاننا تراها مقبرة واسعة يجول الموت في ارجائها، وتحترق بنار الناپالم وتغدو مسرحاً للتنكيل بالرجال والنساء والاطفال والشيوخ، للقتل الجماعي والتعذيب والتهجير والجوع والمصائب. هذه خمس سنوات ونحن نعاني اهمالا عاما اتخذ شكل تواطؤ على عملية اغتيال واسعة يكتنفها «الليل والظلام» على الطريقة النازية.

وجيء بالعشاء وكان موضوعا في صينية واحدة لكل شخصين. فدعاني (ملا مصطفى) الى مشاركته الصينية التي وضعت امامه. وتناول رغيفا من الخبز وقطعه نصفين ووضع في احدى القطعتين بيضة مسلوقة وافلاذا من البصل وقدم لي هذا السندويج الكردي. وكان ثمّ (دوله) وجبن واضلاع خاروف: وجبة عادية اعدت على شرفي. وكان الجميع يأكلون باناملهم ويغبون اقداحهم في اناء اللبن المخيض (دو). اخيرا تناول (ملا مصطفى) من وراء ظهره صفحة العسل البري مخلوطا بشمعه وبرؤوس واجنحة النحل فيه ظاهرة كأنها

ثمار محفوظة. وتناول قطعة من الخبز ولفها على شكل لقمة وغمسها بالعسل وقدمها لي. انها بحسب التقليد القديم عَرضْ صداقة.

ماأبدع السماء واروعها في تلك الليلة! لقد خلعتْ على تلك الركام الثلجية زينة من الحلي الليلية المتألقة الغالية. أقبل (ادريس) واتخذ مجلسه على يسار والده وشرع (ملا مصطفى) يصغي الى ما كان يقوله وسمعه مائل اليه عيناه نصف مغمضتين يدخن ساحبا انفاسا قصيرة. بعد ان انتهي كلام (ادريس) بدأ يعقب بملاحظاته واوامره. وكان الابن يرد على تلك التوصيات باحترام ووداعة بالي... بالي (نعم نعم) وبعد ان انتهت هذه المسارة الثنائية. وضع احد البيشمركه مجموعة من الرسائل جاء بها سعاة مناوبون او التقطت من الراديو. وتبادل الاب والابن التعليق عليها فيما بينهما في حين كانا يرهفان لاكاذيب بغداد المنطلقة بصوت أخن من راديو ترانزستر قريب. كان (ملا مصطفى) ممن يتأخرون في مجالسهم الليلية، وأخذ الزوار يتوافدون مزدحمين في مدخل الشق وانثنى اليَّ يقول:

ـ ان الليل البهيم هو حصن الشجعان والحديث الطلي هو ربيع القلوب.

بهذا المثل قدم لي ايضاحا عن اعتياده السهر الطويل وسار برفقتي حتى حافة الطريق وطلب مني ان اعمد الى زيارته كلما راق لي، وأن التزم اقصى درجة من الحذر والتوقي. وعند الفجر عندما ايقظني هدير الطائرات وجدت خنجرا ذا غمد مذهب وقبضة من القرن مزدانة بمسامير يطلّ عليّ من تحت وسادتي «خنجر برايا. توفنگ بس مام = الخنجر اخي والبندقية ابن عم!» المرة الاخيرة التي رأيت فيها (ملا مصطفى) كان ثم انذار بغارة جوية ليلية اعاقت محادثتنا. أهي محض صدفة أم خيانة مدبرة؟ كانت الاضواء الكاشفة تمور فوق ملجأه. وهدير المدافع الرشاشة يطمس صوت الجدول. واطفئت النار الموقدة دوسا بالاقدام. ولجهلي بالموضع قذفت بنفسي فوق صخور الشق فبقيت وانا نصف غائب عن الوعي معلقا. وعندما التقطت انفاسي رفعني (سامي) واثنان من البيشمركه الى فوق الممر الضيق. في هذا الظلام الدامس لم يكن ثم نور الا وميض سيكارة واحدة. وظل الصوت الهادر يلازم اذني المصدعتين زمنا طويلا. هكذا ودعت (ملا مصطفى البارزاني) متلمسا طريقي خابطا خبط مهزوز الاعصاب. ان هذه المجازفة رفعته الى حد اسطورة في عيني. أسطورة الظل الذي لايمكن الامساك به.

المعركة الكردية من صنعه. وهي لاتستمر ولاتنتصر بدونه. انه يقف في وجه دعاية بغداد التي تتحداه بقولها ان اغلبية سكان كردستان تقف الى جانبها وقد رد عليها يوما بهذه العبارة البليغة المُسكتة:

ـ حسن! اني اذن اقف ضد بلادي واقاومها ببارزانيَّ الألف والخمسمائة؟

من خلال الشرعية التي يستند اليها وبقوة المباديء الديمقراطية والاخلاقية التي يدافع عنها. وبفضل صفات الاستقامة والنزاهة والبسالة والعزم التي تحلىّ بها سيكون القدر والحق يقال قاسيا جدا ولا انسانيا ان لم يسمح لهذا الرجل النبيل العادل المنصف والمثال الحي للوطني العظيم البارز في ليل حياة كرسها برمتها لتحقيق مثله، بالنصر الذي يستأهله مع الاعجاب والتقدير المتأخر ولكن الإجماعي من كل احرار العالم.

اخذني (شير) في احدى الليالي بسيارة (لاندروفر) الى الحدود الايرانية. وكان قد اخبرني بأنه أعد كل مايلزم بخصوص السلطات. الا اني لم أشعر بقرب مغادرة كردستان. لقد انتزعت منها نفسي انتزاعا. مر ثعلب معترضا وكشفه لسان خارج من أضواء السيارة الامامية . وانحرفنا جانبا بحركة فجائية لنتحاش دعس سلحفاة جميلة. وفي (ممر شينوك) لاح برج مخفر الحدود العراقي القديم كأنه علامة تعجب مرسومة بالحبر الصيني فوق ورقة مطرزة بالنجوم. و تمنى لي افراد البيشمرگه اثناء مروري بهم سفرة ميمونة. وأطلق (شير) العنان لسيارته فنزلت منحدرا وتمتم يقول:

ـ هنا نهاية حدود كردستان المحررة.

تعثرت السيارة بحاجز فوقفت وكان بانتظاري سيارة جيب ذات اضواء خافتة. لقد مر زمن طويل حتى اصبحت لااذكر انه يوجد عالم آخر يجب على المرء ان يفكر بالهويات والاوراق الرسمية والاختام وأسلمني (شير) الى رجال الشحنة الايرانيين والدموع تجول في مقلتيه، واحتضنني وعانقني، واختلست آخر نظرة لي من سماء كردستان الموّارة ومن المخرمّ المصّدف لجبال (زاگروس) هذه التي قدر لي ان اعيش فيها مغامرة لامثيل لها. انها اعجب مغامرة لي في سائر حياتي الصحفية بلا ريب. كانت النجوم كلها طالعة وكأنها على موعد معي و.. لكل انسان نجمه يضيء له ويخر ساقطا عند موته، رأيت عدد من الاهالي الكرد الذين نجوا من الغارات وقد تجمعوا داخل فجوة من فجوات مضيق (شينوك) وصعدت الى سيارة الجيب دون ان تراودني الرهبة من ان ألحظ نجما هاويا... وعلى حين غرة تملكني الأسى وشاع في اوصالي تعب ربما كان مصدره ايضا الطريق الخطير الذي كان يغور ويغطس متلويا ومتعرجا حتى (خانه) أوقف السائق وهو من رجال الامن، سيارته امام فندق في شارع عريض مبتذل الهيئة والمظهر تقوم على جانبيه دور منخفضة لارونق فيها ولاتصاميم مميزة. وضايق عيني نور الكهرباء وقيل لي اني سأستقل في صباح اليوم التالي سيارة باص (أتوبيس) تحملني الى (مهاباد و مراغه). لقد كان بمثابة أمر لكنه لم يخل من لطف وكياسة. ولم اذق للنوم طعما في غرفة عامة شاركني المبيت فيها ثلاث رجال أغراب. وادركتني حسرة ليالي كردستان المطرزة بالنجوم الفاتنة. وانبلج الصبح أخيرا عن غرفة نومي القذرة. ونزلت الى الماخور الذي كان قبلا جزء من بهو الطابق الأسفل وأعد صبي زري الثياب عاري القدمين اوعية الماء. وكان ثم صبي آخر يدفع عربة محملة بقوالب الثلج لاغراض التبريد. وكان ثم جنود مختلو الهندام يملأون معظم القاعة يتناولون فطورهم. واخذ الشارع يمتلىء شيئا فشيئا بالفلاحين الراكبين خيولهم، ومعظمهم يشبه شبها اخويا اولئك الذين يعيشون في الجهة الاخرى من سلسلة الجبال متخذين لهم في الحياة نهج تفكير جديد. امامي شيخ طاعن في السن يذر النيكوتين على دملة كبيرة تزيد من حجم ابهامه بعد ان يقشره من فم غليونه وفي الخارج كان بعضهم يسقي مشاتل الاشجار المنتصبة على طول رصيفي الشارع. وتربعتْ النسوة والأولاد حول الحدائق الصغيرة هذه يرتشفون شاي الصباح واصواتهم تتعالى محدثة ضوضاء.

في الساعة الثامنة جلست على مقعدي في سيارة الاتوبيس المخلّعة الأطراف. الا انها كانت اشبه بالمهد تزدان بالازهار الصناعية والصور الساذجة الريفية والمرايا والتحف المزخرفة المؤنقة ويعلو الكل صورة للشاه واخرى للشهانو. وأطعم الركاب اطباقاً من السلطة غير المطبوخة. وكان الاقليم الذي اجتزناه يعج بالمعسكرات. وبلغنا (مهاباد) ظهراً. هنا وقبل سنوات عشرين ولدت جمهورية الكرد النبيلة بزعامة (قاضي محمد) و(ملا مصطفى البارزاني). في هذه المدينة المتواضعة الفقيرة الهيئة المقامة على ارض مستوية دون نظام، وبتكعيبية فوضوية [٣] لايوحي اي شيء فيها بذكرى ايامها الخالية.

كان ثمة دراويش يشكّون خدودهم بمسلات طويلة على الطرق وجمهرة من الناس ملونة لكنها كئيبة المخبر تروح وتغدو وهي تمضغ سيقان نبات الراوند. لم يكن ثمة من يدافع عن تلك السمعة القومية «القوة الجسمانية» خلا بعض الحمالين، رأيتهم ينؤون تحت احمال خارقة يكاد ثقلها لايصدق لكن مَن مِن الناس في العالم يدري بأن المثل «قوي كالتركي» انما كان تزييفاً وغشاً؟

في فندق تبريز الحديث توزع صبيان جوعى فيما بينهم بقية (الچلوكباب) المتخلفة من وجبة الطعام التي تناولتها. واخذني (الاتوبيس) الى (مراغه). وبلغ بي المدينة وقت حلول الظلام، ووضعني شرطي (خانه) الذي رافقني، في يدي زميل مكلف باصطحابي الى (طهران) وشاءت الصدف ان يكون معي في مقصورة النوم بالقطار ضابط ذو رتبة رفيعة في الجيش الايراني. وكان يلمّ بالفرنسية، وأسلمه نعلي الكردي النِجار وهيئتي الزرية الى حيرة. فحدثته بخبري واعلمته من أين جئت وماذا رأت عيني، فابدى سروراً وانشراحاً للانتصار الذي احرزه (ملا مصطفى البارزاني) وعلق بقوله ان «العرب قوم متوحشون»[٤] وفي عربة المطعم التقيت صباح اليوم التالي بأنكليزي يشغل مقعد استاذ في احد معاهد الحبشة وهو الان يقوم بطوافه الرابع حول العالم، يتحاشى ركوب الطائرة ما امكنه ليكون اقرب تماساً بالبشر وقال شارحاً قصده: «بهذا يمكنني ان اكون اقرب فهما الى تلاميذي». كان رجلا نحيلا ضامرا فارع الطول أشقر أصلع تفيض نفسه بالمشاعر والاحاسيس الانسانية. فسألته ايعرف شيئا عن (كردستان) العراق؟ أيدري ان فيها حرباً مستعرة؟ فاجابني ان هذه سفاسف. وهو يفضل ان يرى الاحياء من الناس على

٣ـ مذهب من مذاهب الرسم والنحت تمثل فيه الاشياء بتكعيبات واشكال هندسية اخرى. (المترجم)

٤ـ ان امانة الترجمة ترغم المترجم احيانا على نقل آراء لاتتفق وآراؤه لاتعجبه او هي منه على طرفي نقيض. وقديما قيل (ناقل الكفر ليس بكافر) ولاشك ان رأيا كهذا لايلوح في اعطافه غير النزق والطيش والاستهتار بالقيم البشرية اتفه من ان نتعرض له بالتنديد وايراد الحجج على خلافه. ولنقتصر على القول في هذه المناسبة ان بلد القائل مازال حتى هذه الساعة مدينا بأكثر من نصف تراثه وثقافته ومكانته العقلية للحضارة العربية. ولست اعتقد ان ايرانيا عاقلا واحدا ينكر ذلك. (المترجم)

رؤية الاموات. فبينت له بانه سيجد ثمّ مادة لدروس سامية تجسم المباديء العظمى التي تُلقّن للشباب وتوضح مدى تطبيقها. فلم يكن منه الا ان استرسل في مقولة حول المشكلة الخالدة العلة والمعلول، هذه اللمحات الفكرية التي تمثل اعلى مستويات الثقافة انما تنسق وتنمق لتستر الجبن، او لتغطي الشريعة القديمة شريعة الغابة. وادركت مرة اخرى من مرات كثيرة كم من السهل ان يتفلسف المرء بعد وجبة طعام فاخرة وامام قنينة من الويسكي تساعده على جلاء ارائه وايضاحها. فاجبته وانا اشعر بالغصة مرددا برهان باسكال (٥):

ـ اراهن ان كردستان موجودة.!!

والمحت ايضا الى ان هذا البرهان يثبت كل نوع من انواع التهرب من الواقع.

بلغت طهران اخيراً. وانصرف مرافقي ليتمتع باجازة. لم اعد خاضعاً للرقابة. ومرت طائرة من فوقي متجهة نحو مطار (مهراباد) المجاور، محدثة ضجة عظيمة فهممت بالقاء نفسي على الارض...

٥ـ بلنز پاسكال ١٦٢٣ ـ ١٦٦٢ من نوابغ الفرنسيين في زمانه. بالحساب والفيزياء والفلسفة والادب خلدت اكتشافاته العلمية في الهندسة والفيزياء ولايزال تأثيره الديني عميقا في الفكر المعاصر بفضل كتابه «الافكار». (المترجم)

الفصل التاسع (الخاتمة)

العدل والاحسان

(دنياي گوله كه بهن كه وبده هه قالي خو)
الدنيا وردة. شمها وناولها لرفيقك
(مثل كردي)

حققتُ وعدي، وقلتُ كل شيء للخارج.... كذَّبت نبأ موت (عبيد الله ولقمان وادريس) اولاد البارزاني... وذكّرت الناس بأن اباهم (ملا مصطفى) سبق وواروه التراب عدة مرات أيضا! وابرزت صورا فوتوغرافية تأييداً لقولي... ومن التجربة التي عشتها قدمت الدليل على المقاومة الظافرة لمعركة رواندوز (ڤردون الكردية)... فضحت المذابح والمنكرات التي تقترفها حكومة بغداد وكشفت عن أكاذيبها... وأدنت شريعة الصمت الفريدة في عصرنا هذا. تلك التي تهدف الى تغطية عمليات ابادة منظمة عمدا وبسبق تصميم.

في السادس عشر من آب ١٩٦٦ غادرت سماء العراق طائرة ميگ ـ ٢١ وهو آخر طراز لهذا النوع من الطائرات ومالبثت ان حطت في مطار لاسرائيل يقودها النقيب الطيار العراقي (منير روفا) المسيحي الديانة. فأثار هذا الحدث ضجة دبلوماسية كبيرة وقُدم للرأي العام العالمي بوصفه فصلا من فصول الحرب الخفية المستعرة بين دوائر الاستخبارات الشرقية والغربية. ماذا كان تصريح (منير روفا) المسيحي؟ بكل بساطة قال انه لم يكن قادرا بعد على الاستمرار في خدمة بلاده بسبب الوضع السياسي. وقد ابى عليه ضميره بنوع خاص المشاركة في ابادة اخوانه في الدين عن طريق قصفه القرى الكردية! وقال ايضا ان مأساته هي مأساة العديد من رفاقه في السلاح. هددت موسكو بناء على هذا بقطع مساعداتها العسكرية عن بغداد، واهتم الغرب اهتماما بدراسة خصائص (الميگ ٢١). ولم يهتبل واحدة من الفرص النادرة ليكشف للملأ عن مأساة الضمير التي احتج بها النقيب (منير روفا) واتخذها سببا من أسباب نفوره واشمئزازه. لم يلتفت احد الى هذا. واختنقت هذه الاتهامات في محكمة التاريخ واهيل على شهادته المزعجة التراب (صدقا او كذبا) لان هروبه الذي اراد ان يغطيه بثوب النبل كان كاسيا ثوب الخيانة العظمى التي لاشائبة فيها.

ليس من شك ان (منير روفا) كان واحدا من اولئك الطيارين الغلاظ الرعناء الذين اخطأوا بشكل يدعو للرثاء والعجب اصابة موقع (چومان) وجسره فالقوا بقنابلهم على الجبل خوفا ورعبا.

يظن هذا الطيار انه قام بعمل عادل يستقيم ومباديء الاخلاق حين لجأ الى اسرائيل. انه ليس الا عملا أخرق قبيحا آخر يرتكبه. حمق وطيش. بلاطة اخرى في ممشى مستنقع

البترول... خطأ في توزيع اوراق لعب القمار على مائدة اليهودية العالمية. وانا اقول من جهتي باني موافق على الخط الذي انتهجه (منير روفا). ففي عرفي ان من يرتفع لابد ان يهوي مهما طال به الزمن وهاهو قد سقط. كما وان ندامته على ماارتكب من اعمال القتل ان صحت تؤكد سردي السالف لآلام الصلب التي تجرعها ضحاياه في كردستان[1].

لكن الشعب الكردي بدا في الحقيقة وقد اطبق عليه النسيان. لاأحد يعير اذنا لقرعات اجراس الحزن التي لاتسكت ليلا او نهارا. قليل جدا من المطلعين على خفايا الامور يجرأون على رفع اصواتهم لئلا يخلّوا بنظام الضمير العالمي ويفسدوا عليه نومته. وربما شكا الكرد والاثوريون في عصرنا هذا عيبا كبيرا ونقصا واضحا وهو انهم غير منتمين الى معسكر وليس لهم صبغة سياسية معينة او ربما كانت كثرة من المحافل السياسية العالمية تريد ان تكمّ افواههم وتخرس السنتهم الى الأبد! ان كل نسائهم وكل اطفالهم وشيوخهم الذين يلتمسون النجدة والغوث، كل هؤلاء البشر الذين يستصرخون العدالة والحق. هم غير ارباب النوادي والصالونات، اولاء الذين يرون بان هذه الاصوات المستنجدة تؤذي أسماعهم. وانها لغلطة تاريخية لااكثر. بعد ان اخفتت الحرب الفيتنامية أصوات الكرد راحت هيئة الامم المتحدة هي الاخرى تتأفف قائلة انها ملت من هذه الاقليات التي تصرخ هنا وهناك... أقلية؟ اهناك انسان على وجه البسيطة يجرأ على وضع الشعب البولندي المجزأ في القرن الاخير من عصرنا بين روسيا وبروسيا والنمسا في عداد الاقليات؟ ونحن الفرنسيين ألم نجد انفسنا يوما ما ونحن مقسمون بين بلجيكا والمانيا وسويسرا وايطاليا واسبانيا؟ هل قبلنا ان ينظر الينا كأقلية؟ لماذا اذن يأبون الاعتراف بالشعب الكردي الغني جدا بالتراث والأمجاد العزيز بالقوة والمنعة وكلها تقاليد فيه تراكمت عبر الاجيال والقرون. شعب يزيد تعداده عن مجموع سكان اية دولة عربية في الشرق الاوسط عدا مصر. من يجرأ على نكران حقوقهم؟ أتوگو، ام داهومي، ام تشاد ام كونغو برازافيل، ام اليمن، ام الكويت؟

بالتأكيد ان الكرد لم يخططوا لتحقيق حلمهم بالاستقلال وان كان ذلك مطمحهم الأخير.

فالبنسبة اليهم وفي المحيط الدولي العملي هناك كثير من الحدود يجب تعديلها ولذلك نحّوا جانباً طموحهم الى كردستان الكبرى في الوقت الذي لم يتردد (عبد الناصر) في طرح شعار التحدي. شعار الوحدة العربية الشاملة التي تفترض عند تحقيقها تنقيحاً جزئياً في خريطة الشرق الاوسط وافريقيا. ان الكرد يقصرون مطالبهم على مساواتهم في الحقوق مع سكان البلاد التي يؤلفون اليوم جزءً منها. الا ان انانية العالم المسمى بـ (الامپريالي)

١ـ نحن نتفق ورأي المؤلف في هذا. ونستنكر ان يستغل صاحب هذا العمل الخياني البعيد عن الخلق النبيل محنة كردستان ليكسو عمله طابعا انسانيا. وهو مرفوض رفضا قاطعا بقدر مايتعلق بضمير الثورة الكردية. لقد عبر كثيرا من الضباط العراقيين خطوط النار والتحقوا بقواتنا في اثناء القتال وفي فترات الهدن الطويلة فلقوا من الثورة كل تقدير وترحاب. (المترجم)

والرجعي تدفعه للتحالف على وأد مايسمى بالحركات الثورية. و من جهة أخرى نجد مؤتمر القارات الثلاث (افريقيا آسيا امريكا الجنوبية) المنعقد في هافانا في العام ١٩٦٦ يرفض رسالة (ملا مصطفى البارزاني) الموجهة اليه. ان كردستان مزعجة للعالم الاول قدر ماهي مزعجة للعالم الثالث.

وهم يصفونها «باسرائيل ثانية» بحسب تقدير رأي سوري النِجّار يجد مابين الاثنين تشابها وتواعدا في الاعتداءات. ان الكردي الذي ظلّ دون انقطاع يعيش في ارضه منذ أقدم الازمان التاريخية، كان يحتل قلب الشرق الاوسط قبل مجيء العرب بآماد سحيقة. ومع تقلبات الدهر وصروفه فقد صمد ولم يخفض جناح الذل. انه في الوقت نفسه لم يكن مهتما باقامة دولة مهلهلة غير متجانسة، ولا اتحادا فيدراليا وليد الصدف والظروف. ويحلو لبعضهم ان يستذكر بهذا الشعب القضية البربرية. على ان الشعب الكردي شعب ـس متجانس، ففضلا عن لغته الخاصة وهي لغة حضارية متقدمة. يوجد لديه تنظيمه السياسي وتقاليده الخاصة ناهيك بجيشه وعَلَمه. انه لايمكن ان يقاس بشعب «البربر» المبعثر في ارجاء حوض البحر الابيض المتوسط الرحيبة الذي يتألف من شتيت غير متجانس من الاقليات.

ان الشعب الكردي لايمكن ان ينضم انضماما تكامليا مع اي شعب على غرار القبائل الجزائرية التي كانت العنصر الصدامي في حرب الاستقلال الجزائري. ويبدو ان لااحد يدري ايضا ان كردستان مسجلة في ملاك الحقائق التاريخية عرقيا وجغرافياً وثقافياً. وتلك هي الامور الضرورية الكافية لتبرير وجود وطن أصيل تليد.

فحتّام اذن يمكن التسامح في عملية الابادة التي تشنها بلاد مصطنعة تستمد بقاءها المستمر من مساومات الدول الكبرى؟ وحتّام يبقى عملها هذا دون عقاب ولا رادع متحديا العالم كله؟ ان استئناف المعارك في جبال كردستان يبدو في الواقع محتوما ووشيكا. والعراق يتلقى عونا لاينقطع من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وانكلترا وفرنسا (ايضا). ليعيد بناء جيشه المدحور. وهاهو ذا الآن في نهاية الشتاء تراه محشودا معبأ على مشارف الجبال. و(عارف) الثوري؟ اتراه يفلح هو الآخر في تجنيد رجعيي انقره وطهران مثلما افلحت منذ عهد غير بعيد (الاسرة الهاشمية) التي كانت تحكم بغداد في عقد اتفاق لوضع حد نهائي لأماني الشعب الكردي مشفوعاً ببركات شركة نفط العراق العالمية[٢] هل ستترك ايران شقيقتها التاريخية (بلاد ميديا)[٣] فتقبل لنفسها عار إبادة شعب؟ كلاّ ان العالم لايمكن ان يبقى اكثر مما بقي غير مكترث بالمجازر التي تعدها لتهدد بالقبر النهائي كل المباديء والنوازع البشرية السامية في حفرة جماعية من الصفاقة الدولية وقبائحها

٢ـ يشير المؤلف بهذا الى ميثاق (سعد آباد) الذي وقعته في العام ١٩٣٧ كل من تركيا والعراق وايران وافغانستان وكان موجها في الاصل ولاسيما المادتان السابعة والتاسعة منه الى التعاون فيما بين الاطراف الموقعة على قمع كل حركة تمرد تصدر من هذه الدول على حدودها بالطرق السياسية والعسكرية. (المترجم)

٣ـ الميديون في رأي معظم المؤرخين الانثروبولوجيين هم اجداد الكرد. (المترجم)

المنكرة. ان تدخل الغير لمنع ارتكاب جرائم قتل لايعد تدخلا فضوليا في شؤون الآخرين الداخلية. وان القانون في اي بلد متحضر يجعل من اسداء العون لشخص معرض للخطر أمراً واجباً حتمياً. والشعب الكردي يتعرض من جديد للخطر. ان انسانيته العظيمة لاترتفع الى مستوى بطولاته. ونيتي المتواضعة لاتهدف الى تمجيد هذا وذاك. ان العدل والاحسان يجتمعان هنا... باسم الصليب والهلال من أجل المحافظة على شرف الانسان وكرامته. عندما كنت اخطو عتبة اول دار استضافتني في كردستان. نطقت المرأة التي اقبلت علي هاشة بهذه العبارة المشرقة من الترحيب التي تشرح القلب «حللت على الرأس والعين» هذه العبارات كانت تستبطن ايضا الانفة والالام المجتمعة.... وعند مغادرتي أرض كردستان قطف لي (سامي) في (گلاله) ازهاراً برية تضوع بعبير المحبين وقال لي وهو يقدمها «عش وكن سعيدا. ذلكم هو اكسير الحياة» فسألته ولأجل ماذا؟ فأسر الي ونظره ساهم بهذا المثل القومي الأخير مستعيضا به عن تحية الوداع «الحياة وردة شمها وناولها لرفيقك.. »حملت معي رسالة الاخوة الثمينة هذه من شعب يأبى ان يستأصل يقوده زعيم، الشرف عنده انقى من الزهر. وأمام هذه الضمة الذابلة من الازهار خيل لي أني اسمع أغنية البيشمركه تتعالى مجددا من بقايا الهياكل العظمية المكدسة في جبلي (زوزك) و (هندرين):

ليس احلى من الموت في سبيلك يا كردستان.
ان يكون المرء في وطنه. وان ينشد باعتزاز باللغة الكردية.
في نار لهب سلاحنا اننا نحتفل بمجد شعبنا الالفي العريق وارضنا المحبوبة.
ان يكون الانسان حراً. وان يحبّ وان يؤمن وان يموت فيها.
سل هذا النبع فسيقول لك من خلال خريره.
هناك الف آهة. والف دمعة. والف ثورة. والف امل.

من كل عطور الشرق التي وردت اخبارها في التاريخ والاساطير، من اشدها قوة وتأثيرا اريج زهر گلاله تلك الأزهار التي تحتم علي ان اعطر العالم بها.

(طولوز) الاول من نيسان ١٩٦٧

RENÉ MAURIÈS

LE KURDISTAN OU LA MORT

AVEC LES KURDES en guerre pour leur survie. Barzani chef légendaire d'un peuple indomptable. Autour de ce drame, une étrange conspiration du silence.

TRADUCTEUR et COMMENTATEUR
L'AVOCAT GEORGIS FAT – HULLAH

ETUDE ET ANALYSE
JAWAD MELLA

EDITIONS KURDOLOGIA NO. 3 – 1986
P.O. BOX 607 LONDON NW8 – ODT

RENÉ MAURIÈS

LE KURDISTAN OU LA MORT

AVEC LES KURDES en guerre pour leur survie. Barzani chef légendaire d'un peuple indomptable. Autour de ce drame, une étrange conspiration du silence.

TRADUCTEUR et COMMENTATEUR
L'AVOCAT GEORGIS FAT – HULLAH

ETUDE ET ANALYSE
JAWAD MELLA

EDITIONS KURDOLOGIA NO. 3 – 1986
P.O. BOX 607 LONDON NW8 – ODT

Dr Jawad Mella
Telephone: 00442087487874, Mobile: 00447768266005
e-mail: wka@knc.org.uk , www.knc.org.uk